مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

من فن المقامة في الأدب المصري الحديث
دراسة نقدية

د/ فاطمة سلطان موافي فرغلي (*)

ملخص البحث

يعد فن المقامات من الفنون الأدبية النثرية الخصبة التي كانت مستودعا زاخراً بفرائد اللغة، ووقائع التاريخ، ودراسة قضايا المجتمع وطبائع الناس، واختص بسمات فنية تميز بنيته عن الفنون الأخرى؛ إذ توشح بالنسيج السردي، وحمل روح النقد، وزخر بأسلوب الصنعة اللفظية والبلاغية، وتأنق برداء البيان والبديع، وحمل على عاتقه هدفا ساميا للتعليم والتوجيه، والنصح والوعظ، وإصلاح المجتمع.

انصب اهتمام الدراسة على مقامة الشيخ حسن العطار (في الفرنسيس)، ومقامات علي باشا مبارك (علم الدين)، ومقامة عبد الله باشا فكري (المقامة الفكرية)، ومقامات المويلحي (حديث عيسى بن هشام)، ومقامات حافظ إبراهيم (ليالي سطيح)، بوصفها أشهر المقامات المصرية في العصر الحديث، التي كانت تنفيساً عن خواطر كاتبيها، ومشاعرهم، وأفكارهم.

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الأسلوبي، الذي يُعنى بالنص شكلاً ومضموناً، ثم توصلت إلى عدة نتائج، من أهمها:

- تعددت الأهداف والغايات التي قصد إليها المقاميون المصريون في العصر الحديث، وهي تدور حول الدعوة إلى التجديد والإصلاح، ونقد المجتمع، والتوجيه، والتعليم.
- اختلفت المقامة المصرية في العصر الحديث عن المقامة في العصر العباسي من حيث الأهداف، والموضوعات؛ إذ ابتعدت عن السخرية، والفكاهة، والكدية، والاحتيال، والمدح، والوصف، والتسلية، وإظهار البراعة في الكتابة والإنشاء، وإثبات التفوق في المسائل اللغوية، وكان المعنى هو الأساس الذي تعتمد عليه بنية المقامة المصرية، بخلاف المقامة في العصر العباسي التي كان اهتمامها الأول باللفظ والشكل الخارجي.
- اتسمت المقامة المصرية–لغةً وأسلوبًا– بخصائص فنية تناسب العصر والمجتمع، من أهمها:

١- سهولة اللغة وعذوبتها، وبعدها عن الغرابة والتعقيد، والتزامها بقواعد النحو والصرف.

٢- استخدام المحسنات اللفظية عفو الخاطر دون تكلف، مما أضفى عليها ظلالا موسيقية عذبة.

٣- اللجوء إلى الإطناب في سرد الحكاية، وعرض تفصيلات الموضوع بإسهاب.

٤- الالتزام بأسلوب الحكي والسرد، والحوار بين الشخصيات.

الكلمات المفتاحية: فن المقامة، الأدب المصري الحديث، دراسة نقدية.

(*) أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد– كلية الدراسات الإسلامية والعربية– بنات بني سويف
FatmaFarghaly460.el@azhar.edu.eg

Abstract

From the art of maqam in modern Egyptian literature Critical study

The art of maqamat is one of the rich prose literary arts that served as a reservoir filled with the treasures of language, the events of history, the study of societal issues, and the nature of people. It is characterized by artistic features that distinguish its structure from other arts; it adorns itself with narrative fabric, carries the spirit of critique, overflows with verbal and rhetorical craftsmanship, and is elegantly draped in eloquence and creativity. It carries a noble aim for education, guidance, advice, and societal reform.The focus of the study was on the maqamah of Sheikh Hassan Al-Attar (in the Franciscans), the maqamat of Ali Pasha Mubarak (Science of Religion), the maqamah of Abdullah Pasha Fikri (the intellectual maqamah), the maqamat of the Muwailihis (the conversation of Isa bin Hisham), and the maqamat of Hafiz Ibrahim (the nights of Sittiha), as they are considered the most famous Egyptian maqamat in the modern era, which served as an outlet for the thoughts, feelings, and ideas of their authors.The study relied on a descriptive analytical methodology and a stylistic approach that addresses the text in terms of form and content, and then reached several conclusions, the most important of which are:

• The goals and purposes intended by the Egyptian maqamat writers in the modern era were varied, revolving around the call for renewal and reform, critique of society, guidance, and education.

The modern Egyptian maqama differs from the maqama in the Abbasid era in terms of goals and subjects; it moved away from satire, humor, drudgery, deceit, praise, description, entertainment, showcasing skill in writing and composition, and proving superiority in linguistic matters. The meaning became the foundation upon which the structure of the Egyptian maqama relied, unlike the maqama in the Abbasid era, which primarily focused on expression and external form.

• The Egyptian maqama is characterized - linguistically and stylistically - by artistic features suitable for the era and society, the most important of which are: 1- The ease and sweetness of the language, its distance from strangeness and complexity, and its adherence to grammatical and morphological rules. 2- The use of verbal embellishments spontaneously without pretense, which imparted sweet musical shades. 3- Resorting to redundancy in narrating the story and presenting the details of the topic extensively. 4- Commitment to a storytelling and narrative style, as well as dialogue between characters.

Keywords: Maqam art, modern Egyptian literature, critical study.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

مقدمة البحث

الحمد لله الذي لا يؤدي شكرُ نعمةٍ من نعمه إلا بنعمةٍ منه، الحمد لله باعث النبي الهادي، مُفْحِما باللسان الضادي كلَّ مضادي، مُفَحَّما لا تشينُه الهُجْنَةُ واللُّكنة والضوادي، سيدِنا ومولانا محمدٍ السيدِ المُرتضَى، والسندِ المرتجى، والرسول المنتقى والحبيب المجتبى ...

لقد كان الاختلاف حكمة إلهية جرت على البشر؛ فتميز بعضهم عن الآخر في الشكل واللغة والثقافة والبيان، وانعكس هذا على آدابهم في كل العصور؛ فجاء الأدب مختلفاً باختلاف البشر (مؤلفاً ومتلقياً) واختلاف الزمن، مُقسماً إلى أجناس وأنواع وفنون؛ كل فن يختلف عن الآخر شكلًا ومضموناً لكن هذه الفنون تجتمع في التعبير عن الذات الإنسانية وما تحمله من مشاعر وأحاسيس.

وكان من الفنون الأدبية النثرية الخصبة التي ضمت تفاعلا منسجما بين أجناس أدبية مختلفة ، وكانت مستودعا زاخراً بفرائد اللغة ، والشعر العربي القديم ، والحكم والأمثال ، ووقائع التاريخ ، ودراسة قضايا المجتمع وطبائع الناس ؛ فن المقامة الذي نشأ تدريجيا من رواية الأخبار ، وصار يختص بسمات فنية تميز بنيته عن الفنون الأخرى ، ويجمع بين الشعر والنثر في قوة ومتانة ، ويتوشح بالنسيج السردي ، ويحمل روح النقد ، ويمتزج بخفة الفكاهة والنادرة ، ويزخر بأسلوب الصنعة اللفظية والبلاغية ، ويتأنق برداء البيان والبديع ، ونوادر اللغة ، ويحمل على عاتقه هدفا ساميا للتعليم والتوجيه والنصح والوعظ وإصلاح المجتمع .

انتشر فن المقامة في القرن الرابع الهجري في العصر العباسي ، ولاقى قبولا في الأوساط الشعبية والأدبية ، وراج رواجا كبيرا على يد الهمذاني ت ٣٩٨ هـ (مقامات بديع الزمان الهمذاني) ، والحريري ت ٥١٦هـ (مقامات الحريري) ، ثم نهض هذا الفن في القرن التاسع عشر على يد ناصيف اليازجي ت١٨٧١ م (مجمع البحرين) ، وأحمد فارس الشدياق ت١٨٨٧ م (الساق على الساق فيما هو الفارياق) ، ومحمد المويلحي ت١٩٣٠ م (حديث عيسى بن هشام)، وحافظ إبراهيم ت١٩٣٢ م (ليالي سطيح) ، لكن الأدباء أهملوه حتى أفل نجمه ، وهو الفن العربي الأصيل الذي مثّل جانبا من جمال الأدب والتراث العربي ، كذلك النقاد لم يمنحوه من العناية والاهتمام ، ما منحوه لفن الشعر ؛ فكانت أكثر الدراسات تدور حول رواد هذا الفن ؛ بديع الزمان الهمذاني ، وأبو محمد القاسم بن محمد الحريري ، أو بعض المقاميين الذين اتبعوا تقاليدهم في قرون لاحقة لهم ، لتعرّف بهذا الفن وتبرز خصائصه الفنية عند كاتبه ، ثم كانت بعض الكتب التي ركزت البحث على فن المقامة في قرن من القرون مثل كتاب (فن المقامة في القرن السادس ، د.حسن عباس ، دار المعارف) ، أو تناولته في معرض موضوع تطور الفنون النثرية مثل كتاب (تطور

الأساليب النثرية في الأدب العربي ، أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين، بيروت) ، أو خصصت له كتابا يعرّف بهذا الفن ونشأته وخصائصه عند مؤسسيه مثل كتاب (المقامة ، د.شوقي ضيف، دار المعارف)، وكانت الدراسات التي رصدت تطور فن المقامة محدودة، منها: كتاب (فن المقامات في الأدب العربي، عبد المالك مرتاض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر) الذي فصّل الشرح في أصول فن المقامات، ونشأته، ورواده وخططهم الفنية ، وطرائقهم في الكتابة ، ومن حذا حذوهم على مر عصور التاريخ الأدبي، ثم انتهى، بإشارة موجزة إلى مقامات المويلحي وحافظ إبراهيم تحت عنوان " مقامات سارت على خطط فنية مختلفة " وهو يقصد خططا فنية مختلفة عن التي ذكرها، ثم لم يفصل القول عنها، ولم أجد دراسة تناولت فن المقامة في الأدب المصري الحديث لتعرّف برواد هذا الفن من المصريين، وتبحث في أهدافه وخصائصه الفنية.

انطلاقًا مما سبق، وتحقيقا لمبدأ نهوض البحث العلمي من حيث انتهى السابقون ، تحاول الدراسة أن تقدم إسهامًا متواضعًا في عرض خصائص المقامة المصرية الحديثة- شكلا ومضمونا- وتحديد أهدافها العامة، والإشارة إلى أشهر كتابها؛ فمما لا شك فيه أن البيئة المصرية بطبيعتها الفريدة، والمجتمع المصري بطابعه الخاص يؤثران في الأدب؛ إذ توجد علاقة وثيقة تبادلية بين الأدب والمجتمع، فكل منهما يلقي بظلاله على الآخر، يؤثر فيه ويتأثر به، ينميه ويطوره؛ فالمجتمع يمد الأديب بالمواقف والصراعات والقضايا والبواعث التي تثير خياله وفكره ، وتحرك موهبته وعاطفته فيتأثر الأديب بواقعه وحياته ومجتمعه الذي هو فرد منه ويتفاعل معه ليشكل تجربته الأدبية التي تحمل بصمته الخاصة ورؤيته الذاتية، ثم يوجهها نحو المجتمع الذي أنتجها ليؤثر فيه ويطوره ويرقى به ، والمقامة من أصدق الفنون النثرية تعبيرا عن الحياة الاجتماعية بكل أبعادها، وتصويرا لأحوال الناس على اختلاف طبائعهم وسلوكياتهم ، وعرضًا لمظاهر حضارتهم وطرائق معيشتهم ومواضع الضعف والقوة في أخلاقهم ، ورصدا للمشكلات الاجتماعية ومعالجتها، وتشخيصا للظواهر الفكرية والسياسية والاجتماعية والتعامل معها.

يضاف إلى ما سبق الرغبة في دراسة ذلك الفن الذي ضعف مؤخرًا، وقل الاهتمام به إنشاءً ودراسةً بسبب ضعف المواهب، ونضوب القرائح التي لا تجد من الشعر، والحكمة، وفرائد اللغة، والنوادر، والأمثال، ومحاسن الأساليب، ما يسعفها لتنشئ مقامة محكمة كمقامات الهمذاني والحريري؛ فتحاول الدراسة أن تقدم طرفا من هذا الفن بالعرض والنقد عله يجد بين محبيه صدى فيرجع إليه قدره، ويزداد نشره، أو تلمحه عين ناقدة فينبُه ذكره، ولا تعنى الدراسة بالتحليل الفني لنصوص المقامات إلا بقدر ما يتطلبه البحث.

كما أن أكثر المقامات موضوع الدراسة لم تُدرس دراسات مستفيضة بالمناهج النقدية الحديثة رغم أهميتها وقيمتها الفنية، وما تحمله من آراء وأفكار وانطباعات ذاتية واجتماعية، تدعو إلى التأمل والتحليل والنقد، وتعود على الباحث بالكثير من النفع والعلم، فيكون هذا البحث دعوة للباحثين إلى درس المقامات المصرية وتحليلها وبيان ما تكتنزه من قيم فنية.

فوجدت في نفسي رغبةً لتسليط الضوء على هذا الفن من خلال المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الأسلوبي، الذي يُعنى بالنص شكلاً ومضموناً، ويهدف إلى استخراج ما يكتنزه من قيم فنية وجمالية بوساطة دراسة نسيجه اللغوي.

وقد وقع الاختيار على مجموعة من المقامات، تنتمي لكتاب مصريين، هذه المقامات:

- **مقامة " في الفرنسيس " للشيخ حسن العطار ت ١٨٣٥م ".** (١)

" مقامة الشيخ حسن العطار هي مخطوطة خطها تلميذه محمد صيام الجيلاني بخط النسخ معتاد يقرأ بوضوح لا لبس فيه ولا كشط ولا شطب (وذلك باستثناء شطب في التحبير في سطر ١٧ صفحة رقم ١) وهو لا يؤثر في المعنى الأمر الذي يقطع بأنه شطب وليس طمسا لكلمة أو إشارة، ثم أعاد المستشرق الأمريكي بيتر جران نشرها مطبوعة في كتابه (الجذور الإسلامية للرأسمالية)، في حوالي صفحتين ونصف ملحق ١ (٦٥ سطرا) وبمراجعة النسخة المخطوطة على النسخة المطبوعة تبين لنا حذف المحرر للكلمة المشطوبة وسلامة المتن المنقول، أما المخطوط المسطور في مكتبة الشيخ عبد الرحمن خلف قد سجل برقم ٥٨". (٢)

- **المقامة الفكرية السنية في المملكة الباطنية " لعبد الله فكري باشا ت ١٨٨٩م".** (٣)

المقامة الفكرية هي تعريب لكتاب باللغة التركية، يقول عبد الله فكري في مقدمة مقامته:" كنت قد عثرت في بعض أسفاري سابقا إلى القسطنطينية دار الخلافة السنية (على) كتاب لطيف الأسلوب باللغة التركية يعرف بالمملكة الباطنية وأصله من بعض الألسن الأجنبية فنقلته إلى اللغة الشريفة العربية بصورة مقامة أدبية، وضممت إليه بعض زيادات أظنها لا تخرج عن المطلوب، وتصرفت في عباراته مع المحافظة على الأسلوب ". (٤)

---

١) يراجع في نص المقامة: المقامة ودورها في الفكر العربي الحديث مع تحقيق لمقامة (في الفرنسيس) للشيخ حسن العطار، أ.د/ عصمت حسين سيد نصار، أ.م/ منال رفاعي محمد، مجلة الفكر المعاصر، الإصدار الثاني، عدد ٢٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٣، ص ١٥١.
والجذور الإسلامية للرأسمالية مصر ١٧٦٠ ـ ١٨٤٠، بيتر جران، ترجمة محروس سليمان، مراجعة د/ رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ملحق ١، ص٣٣١.

٢) المقامة ودورها في الفكر العربي الحديث مع تحقيق لمقامة (في الفرنسيس) للشيخ حسن العطار، أ.د/ عصمت حسين سيد نصار وأ.م/ منال رفاعي محمد، ص ١٤٩.

٣) المقامة الفكرية السنية في المملكة الباطنية، تعريب عبد الله فكري باشا، ط ١، مطبعة حسن علي المطبعجي، ١٨٩٨م.

٤) المقامة الفكرية، ص٢.

والمفهوم من كلام عبد الله فكري أن هذه المقامة ترجع إلى نصوص أصلية بلغات أجنبية، وقد قرأها فأعجب بمضمونها، ونقلها إلى العربية، لكن ربما كان هذا الكلام قناعا يتخفى خلفه عبد الله باشا فكري ليعبر عن أرائه ومعتقداته بأريحية وحرية؛ فلم يشر إلى مؤلف الكتاب وأثبت أنه أضاف وعدّل وحذف واختار له شكل المقامة بجاذبيته ليفرغه فيه، ففي كل الأحوال نص المقامة باللغة العربية منسوب إليه.

- **علم الدين " لعلي باشا مبارك ت ١٨٩٣م ". (٥)**

جاءت مقامات علي مبارك في كتاب اشتمل على "جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والعربية والفنون الصناعية، وأسرار الخليقة وغرائب المخلوقات، وعجائب البر والبحر ... ليطلع مطالعه على ما يشحذ خاطره وينبه قريحته، ويستنهض فكرته ... على نمط يسمو عن السآمة ولا يميل إلى الملالة ، مفرغا في قالب سياحة شيخ عالم مصري وسم بعلم الدين مع رجل إنكليزي ... لتأتي المقارنة بين الأحوال المشرقية والأوروبية ... وقد قسمته إلى مسامرات ينتقل فيها القارئ تنقل المسافر ويجد فيها فكاهة المسامر، كما ينتفع به المعلم والمتعلم ؛ فيكون للأول مفكراً منبهًا وللثاني معلماً مفقهًا " (٦)، ورغم استخدام المؤلف كلمة مسامرة في تقسيم الكتاب دون كلمة مقامة، فإن متن الكتاب اتسم بخصائص المقامة من الاستهلال، والأسلوب البديع، والاستشهاد بالمأثور من الكلام شعراً ونثراً، واستخدام بعض مقومات القصة.

- **حديث عيسى بن هشام " لمحمد المويلحي ت ١٩٣٠م". (٧)**

وهي مقامات أُلفت في الأخلاق والعادات، ونقد المجتمع، بلغة سلسة، تصور الحياة المصرية في شتى مظاهرها الاجتماعية والسياسية، بقصة خيالية، دون سأم أو ملل.

- **ليالي سطيح " لحافظ إبراهيم ت ١٩٣٢م ". (٨)**

وهي مقامات أرخت للتاريخ المصري السياسي وصورت الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها.

ولم أجد دراسات أدبية أو نقدية حول المقامات الثلاث الأُوَل ، بينما نال "حديث عيسى بن هشام " الحظ الأوفر من الدرس ؛ فوجدت دراسات متعددة تتنوع بين مقالات وبحوث تدرس جانبا أو

---

٥) علم الدين، علي باشا مبارك، مطبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية، ١٨٨٢ م.

٦) يراجع: علم الدين، ص ٨.

٧) حديث عيسى بن هشام، محمد المويلحي، ط ٧، دار المعارف.

٨) ليالي سطيح، حافظ إبراهيم، مع دراسة تاريخية تحليلية للعصر والكاتب والكتاب لعبد الرحمن صدقي، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

عنصرا محددا من عناصره ، منها : البعد الاجتماعي في مقامة عيسى بن هشام ، رشيد شنين ، (بحث) جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، الجزائر ، ٢٠٢١م ـــــ والبنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام ، عبد الحميد حواس ، (مقال) نشر في مجلة فصول عام ١٩٨١م ـــــ وملامح السرد في تصوير الشخصية في حديث عيسى بن هشام للمويلحي ، أحمد يوسف خليفة ، (بحث) ، المؤتمر الدولي الأول للسرديات ، المجلد ٣ ، الجمعية المصرية للسرديات ، ٢٠٠٨م ـــــ و حديث عيسى بن هشام وليالي سطيح بين المقامة والقصة الحديثة ، عصام حسين إسماعيل أبو شندي ، (بحث) ، مجلة العلوم العربية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عدد ٣١ ، ٢٠١٤م ـــــ وكتاب ليالي سطيح ، مع دراسة تاريخية تحليلية للعصر والكاتب والكتاب لعبد الرحمن صدقي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤م .

ولم تكن هذه الدراسات شاملة لجميع عناصر المقامات، ولم تضم مجموعة من المقامات التي تمثل نموذجا لفن المقامة المصرية في العصر الحديث، ومن هنا كان اختلاف موضوع هذه الدراسة عن الموضوعات المدروسة.

تضمن البحث مقدمةً وتمهيدا ومبحثين ؛ عرضتْ المقدمة أهمية الموضوع ، ودوافع اختياره ، والمنهج المتبع في الدراسة ، وتناول التمهيد (إضاءة حول المقامة المصرية الحديثة) التعريف بأهدافها وأشهر كتّابها ، وخُصص المبحث الأول (خصائص المضمون) للوقوف على أبرز الموضوعات والمضامين الفكرية للمقامات المصرية في العصر الحديث ، وخُصص المبحث الثاني (خصائص الأسلوب) لدراسة عتبات المقامات ، واللغة والأسلوب ، والبنية السردية ، ثم الخاتمة التي تلخص أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، وبعض التوصيات التي خرج بها البحث .

هذا ما قمت به من جهد في هذا البحث، وأرجو من الله عز وجل أن يلقي عليه ظلال القبول ... وأخيراً فالحمد لله الذي منّ عليّ بإتمام هذا البحث، وأعانني على إنجازه على هذا النحو، فله الحمد كله، كما يليق بجلال وجهه وعظيم منِّه وفضله، فإن يكن من فضل في ذلك، فلله جلّ شأنه، أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه. إنه سميع قريب مجيب لدعاء عبده.

التمهيد

إضاءة حول المقامة المصرية الحديثة

إن الأدب كائن حي يتطور بتطور العصور والمجتمعات ؛ فتتغير موضوعاته ، وخصائصه ، ويعد فن المقامة من أكثر الفنون الأدبية ارتباطا بالمجتمع ؛ فينبغي أن تختلف أهدافه وسماته بتطور العصور ، والأحوال ، والكُتّاب الذين يكتبونه ، ولن أقف عند تعريف المقامة ، ونشأتها ، وغيرها من القضايا التي عالجها كثير من النقاد حتى لا يكون الكلام معاداً ومكروراً بلا فائدة أو نتيجة ؛

لذا ، سيركز هذا التمهيد على التعريف بالمقامات موضوع الدراسة ، وأهدافها ، حتى إذا تم ذلك ، تشكلت صورة تحدد الغايات التي كان يرمي إليها كُتّاب المقامات في العصر الحديث .

إذًا، ما الموضوعات والغايات التي قصد إليها كاتبو فن المقامة في العصر الحديث؟

- **مقامة " في الفرنسيس " للشيخ حسن العطار. ([9])**

تضمنت مقامة الشيخ حسن العطار عدة أفكار ، منها : قبح أفعال الاحتلال الفرنسي في مصر ؛ إذ بدأ الشيخ مقامته بالحديث عن الفرنسيس ، وما كانوا يفعلونه في المجتمع المصري من أعمال خلّفت فزعًا بين الناس ، وألحقت بهم هلاكًا ، واضطرابًا ، وفرارًا من دورهم ، وخص الحديث عن حي الأزبكية الذي كان مقرًا للمجالس العلمية والثقافية ، ومركزًا للمكتبات الأدبية ، ثم صار مسكنًا لهؤلاء القوم (الفرنسيس) ؛ فتغير عما كان ، واستحال فيه الأمن خوفًا ، والجمال قبحًا ، والفضيلة فحشًا ، والطيب خبيثًا ، مما دفع بطل الحكاية (الشيخ العطار) إلى الهروب ، فساقه القدر المحتوم إلى دار صاحبٍ له من أرباب العلوم والذوق والفهوم ، صاحبٍ تسره رؤيته وينشرح صدره لمخالطته ، يسكن في جهةٍ أهلها مسالمون ، وهم للقوم مخالطون ولا يتقاتلون .

---

[9]) ولد الشيخ حسن العطار في القاهرة عام ١٧٦٦م ، وهو ينحدر من أصل مغربي ، التحق بالجامع الأزهر ودرس بجانب العلوم الأزهرية العلوم الهندسية والرياضية والفلكية وتعمق في دراستها ، واشتغل بالتطبيق العملي للمعارف التي تعلمها نظريا ، كما كان له اهتمام بالطب والتشريح ، وعندما ابتليت البلاد بالحملة الفرنسية غادر القاهرة إلى أسيوط ثم عاد إلى القاهرة إبان الاحتلال ، واتصل بعلماء الحملة الفرنسية وشاهد التجارب العلمية التي قاموا بها ، وكان يجيد التركية وله إلمام بالفرنسية ، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة ، كان أديبا وشاعرا معدودا في طليعة الأدباء والشعراء في عصره ، وقد تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر عام ١٨٣٠م وظل في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٨٣٤م ، للشيخ العطار مؤلفات عديدة تدل على سعة معارفه وعميق ثقافته ، وقد شملت مؤلفاته علوم المنطق والفلك والطب والكيمياء والهندسة والتاريخ والجغرافيا كما شملت الأدب شعرا ونثرا بالإضافة إلى أصول الفقه وعلم الكلام والنحو والبيان ، كان مما يؤرق بال الشيخ ما كان يراه من تخلف فكري وركود عقلي في أوساط العلماء الذين وقفوا مقلدين لما تركه لهم أصحاب المتون والحواشي من المتأخرين ، ومن أجل ذلك نجده يدعو إلى تغيير هذه العقلية ولن يتم التغيير إلا بالعلوم والمعارف والأخذ بأسباب التقدم والحضارة ، ويعد الشيخ حسن العطار من الرواد الأوائل الذين اتجهوا نحو إصلاح التعليم الأزهري ، ووجه تلاميذه إلى التجديد فيما يقومون به من دراسات وأبحاث ، وهو صاحب فكرة إرسال رفاعة الطهطاوي في البعثة العلمية إلى فرنسا في عهد محمد علي ، كما كان صاحب فكرة تدوين الطهطاوي لكل ما يرى في أثناء رحلته مما كان ثمرته كتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باريز " كما دعا إلى التجديد في مناهج التربية والتعليم ونادى بإدخال العلوم الحديثة والعلوم المهجورة بالأزهر إلى مناهج الدراسة الأزهرية فطالب بدراسة الفلسفة والجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية ، وكان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية، وقد برع الشيخ في فنون الشعر والنثر يميل إلى سهولة الأسلوب والبعد عن التكلف ، فكان رجلا مستنيرا اشتهر بعلمه وكان أيضا شاعرا ناثرا من أصحاب الأساليب .

يراجع في ترجمة الشيخ حسن العطار: من أعلام الفكر الإسلامي الحديث، أ.د/ محمود حمدي زقزوق، مطابع الأهرام بالقاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١١ وما بعدها ـــ وأعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور باشا، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٧م، ص١٧ وما بعدها.

ثنى الشيخ بفكرة الإقامة عند صاحبه وما صادفه في حارته ؛ إذ صادف الشيخ بالحارة التي يقيم فيها صاحبه فتية من الفرنسيس وصفهم بقوله :" برزن كالشموس وهن يتمايلن تمايل العروس بوجوه سدل الحسن عليها جلبابه " ، وهو يقصد بهؤلاء علماء الحملة الفرنسية ، وقد سمع عنهم من أهل العرفان وممن جال في الأقطار والبلدان ، أن للبعض منهم ميل إلى المعارف ، وقد أشربوا حب العلوم الفلسفية وحرصوا على اقتناء كتبها وإعمال الفكر فيها ، وهم يبحثون عمن له بها إلمام ، ويتجاذبون معه أطراف الكلام ؛ فتطلع إليهم ، ووقف يرمقهم وينظر إليهم ، ففهموا مقصده ، ومالوا إليه ، وابتدأن بالتحية عليه .

ثم كانت المحاوراتُ العلمية بين الشيخ وعلماء الحملة الفرنسية ، موضوعَ فكرته الثالثة ؛ إذ تعرّف الشيخ على هؤلاء الفتية ــ كما وصفهم ــ وقضى يومه معهم ، فبدأ أحدهم كلاما وأراه كتابا ، وتدارسوا بعض كتب الأفاضل والأكابر شرحاً وتعريفاً ، حتى استحوز على الشيخ العجب ونشوة الأدب ، من عربيتهم الخالصة من اللكنة وألفاظهم البعيدة عن الهجنة ، واطلع على ما عندهم من كتب في العلوم الرياضية ، والأدبية ، والهندسية ، والفلكية ، وتحادثوا في مسائل من تلك العلوم ، وشرح لهم بعض ما غمض عليهم في بعض مسائل اللغة وأبيات الشعر ، وفسّر لهم بعض الكلمات اللغوية ، وأنشدهم قصيدة ارتجلها وهي تشتمل على بعض لغتهم فتعجبوا غاية العجب .

ختم الشيخ مقامته برفض دعوة علماء الحملة الفرنسية له للإقامة بينهم؛ فبعد انتهاء حواراتهم العلمية، وجدوا عند الشيخ من المعارف والعلوم ما دفعهم للإفراط في المديح والثناء، وطلبوا منه ملازمتهم والإقامة في كنفهم، فسوّف الشيخ في الإجابة، وأضمر عدم الإنابة، خوفا من الاحتقار والملامة.

القارئ لمقامة الشيخ حسن العطار يرى فيها بوضوح منهجه الإصلاحي والتنويري الذي سخره لتحرير العقول من الركود ، والثقافة من التقليد ، وذلك بتجديد المناهج الدراسية في التربية والتعليم، وإدخال العلوم الحديثة والعلوم المهجورة كعلوم الفلسفة والمنطق والجغرافيا وعلوم الطبيعة إلى مناهج الدراسة بالأزهر، فأشار الشيخ في مقامته إلى أهمية التلاقح الثقافي بين الأمم، وأكد أن الانغلاق والعزلة اعتماداً على تراث الأجداد والوقوف عنده هو جمود يجب التخلي عنه؛ فطلب العلم والحكمة والمعرفة لا ينبغي أن تعرقله العادات ولا تعجزه المعوقات للحاق بركاب المتقدمين، كذلك أشارت المقامة ــ بالتلميح والإحالة ــ إلى أسلوب الشيخ في التعامل مع الآخرين اعتماداً على الاحترام وتبادل المعارف والإفادة من علوم الأخرين، وكذلك الاعتزاز بهويته العربية المسلمة وجنسيته المصرية عندما رفض طلب علماء الحملة في الانضمام إليهم وملازمتهم ، خوفا من الاتهام بالخيانة.

أهداف مقامة " في الفرنسيس " للشيخ حسن العطار.

كان الشيخ العطار من أئمة العلماء الذين يلتف حولهم التلاميذ ليتلقوا عنه العلم ، بل إن بعض العلماء كانوا يتركون حلقاتهم العلمية ليحضروا درس الشيخ في الجامع الأزهر للاستزادة من علمه؛ فمؤلفات الشيخ كانت تهدف إلى التعليم والتوجيه ، وكان الهدف الرئيس من هذه المقامة التوجيه نحو إرساء مبادئ الفلسفة التنويرية ، والدعوة إلى التجديد ، والمنهج الإصلاحي الذي دعا إليه الشيخ ، وأراد أن يرسخ دعائمه في نفوس تلاميذه ــ كما فعل مع رفاعة الطهطاوي ــ ليحثهم على طلب العلم والإفادة من ثقافات الأمم الأخرى دون حرج ، في حدود العلم النافع ورفض ما يتعارض مع عقيدة الإسلام .

كذلك قصد الشيخ بأسلوب التلميح والرمز إلى نقد علماء عصره الذين كانوا ينكرون العلوم الحديثة، ويعترضون على كل جديد، ويتشبثون بالتراث في جمود وعزلة، مؤكداً على دعوة التجديد والإصلاح، وأشار إلى هذه الفكرة عندما طلب منه علماء الحملة توضيح بعض القضايا والمسائل اللغوية، ثم زودوه بما عندهم من علوم حديثة.

- **المقامة الفكرية السنية في المملكة الباطنية " لعبد الله فكري باشا ت ١٨٨٩م". ([١٠])**

تدور المقامة الفكرية حول موضوع رئيس، وهو الصراعات الداخلية التي تعتمل في نفس الإنسان فتتنازع أهواؤه وشهواته مع عقله وبصيرته، وهذه الفكرة كانت قناعا تخفى وراءه عبد الله فكري ليسقط هذه الصراعات على المجتمع السياسي في مصر؛ فبدأ بالتفكر في عجائب الزمان، وصنيع الرحمن من بديع الإحسان، ومزايا الإنسان من عقل وبصيرة، وكيف أن البصيرة تختلف من إنسان لآخر باختلاف الحال والشأن والزمان والمكان، وهي في كل الأحوال تحثه على الخير وتكفه عن الشر، ولكنها أحيانا تناقضها الشهوات.

ثم بدأ يتحدث بلسان الخيال وهو الراوي، عن قيمة العقل في المملكة الباطنية (الإنسانية)، فهو كالملك الكبير، والبصيرة له بمنزلة الوزير الناصح الرشيد ، والهوى كالجليس الخائن والصاحب

---

[١٠]) عبد الله فكري باشا بن محمد بليغ بن عبد الله بن محمد ، وزير مصري من المتأدبين ، ولد بمكة عام ١٨٣٤م ، نشأ في القاهرة وتعلم في الأزهر ، ثم كان وكيلا لنظارة المعارف ، فكاتبا أول في مجلس النواب ، فناظرا للمعارف المصرية عام ١٢٩٩هـ واستقال بعد أربعة أشهر ، واتهم بالاشتراك في الثورة العرابية ، فسجن وبرئ ، اختير عام ١٣٠٦هـ رئيسا للوفد العلمي المصري في مؤتمر استوكهلم ، وتوفي في القاهرة عام ١٨٨٩م ، من مؤلفاته : الفوائد الفكرية ، والمملكة الباطنية ، وله ديوان شعر فيه مساجلات شعرية كانت بينه وبين بعض معاصريه كالأمير شكيب أرسلان والشيخ الليثي وأحمد فارس ، ومسودة "أنموذج كتاب لتعليم صغار الأطفال ، وجزأين من دفاتره كتب على أحدهما : الجزء الثالث من الدفتر لجامعه عبد الله فكري ، وفيهما فوائد في الأدب والاجتماع والجغرافيا وغيرها ، وكتابات من إنشائه تدل على أنه كان يجيد مع العربية التركية والفرنسية .

يراجع في ترجمة عبد الله فكري باشا: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ج٤، ص ١١٣.

المداهن، ثم فصّل القول في الصراع الدائر بين العقل والهوى، وأفصح عن رأيه أن من غلبت بصيرته على هواه فاز بالمنى والسلامة، ومن غلب هواه على بصيرته وقع في الغي والندامة، والسعيد الموفق من يراعي الاعتدال في كل حال، وظل يفكر كيف يترك الإنسان ما ينفع بما يضر، ويشتري باختياره ما يحزن بما يسر، وما زال يفكر ولا يجد جوابا، ولا تزيد المسألة إلا خفاءً، حتى لاح له شكل روحاني وشخص نوراني، وقال له: لا سبيل إلى حل هذه المسألة إلا بسياحة مملكة الباطن، ومسح على وجهه فغشيته حال أذهلته عن الوجود، وإذا بأنوار مملكة الباطن تظهر، فاصطحبه هذا الشيخ المدعو (الفراسة) في رحلته، ممسكا بيده، ليصل إلى بغيته، ثم بدأ في وصف هذه المملكة الواسعة التي كشف الوصف المفصّل لها عن كنهها وهو عالم الإنسان ظاهره وباطنه، واستطرد في وصف الملك (العقل)، ووزيره (البصيرة)، وسفراء المملكة (الحواس الخمس) ، وجماعة الأغراض النفسية ، وطائفة الخصال الذميمة ، والهوى ، والاستقامة، والعدل، والعفة، والحياء، وكيف انبرى كل فرد من أفراد هذه المملكة يعبر عن رأيه فيما ورد إليهم من أمر مملكة أجنبية، واستمر الحوار والصراع بين الحاضرين جميعا حول هذه المسألة في ديوان الملك، وهو يسمع لهم حتى يصل إلى قرار، وكان حديث كل واحد منهم نابعًا من شخصيته وطبيعته، محدداً خصاله وهويته.

إن القارئ للمقامة الفكرية يطالع خطاباً فلسفياً عميقًا بأسلوب أدبي بديع، يحمل في طياته مبادئ المنهج الإصلاحي، وأسس التربية السليمة، وأصول الإدارة السياسية الحكيمة، ودلالات فكرية غزيرة، ودعوة تثقيف اجتماعية، مستخدماً الرمز والإشارة والتلميح في المعالجات النقدية، وذلك كله ظهر في الحوار الذي أقامه الراوي (الخيال) ودليله (الفراسة) في المملكة الباطنية حينما اصطحبه داخل المملكة ليتعرف على الملك (العقل) وسياسته الحكيمة في إدارة المملكة.

أهداف المقامة الفكرية في المملكة الباطنية.

المتأمل للمقامة الفكرية في المملكة الباطنية، يستطيع أن يقف على عدة غايات ومقاصد، منها:

رغبة الأديب في التعبير عن خواطر نفسية فلسفية، تظهر براعته في تدبيج القول، وعمق تفكيره، وتعدد ثقافاته.

كما قصد عبد الله فكري بهذه المقامة أن يحقق حلماً من أحلامه في الإصلاح والتغيير؛ فنقد الأوضاع الاجتماعية، والأحوال السياسية، بأسلوب رامز يحفظه من المساءلة والمحاسبة، وأسس لنظام سياسي راشد متحدثا بلسان العقل، والبصيرة، والخيال، والأغراض النفسية، والخصال الذميمة.

لم تكن أسس التربية النفسية السليمة بعيدة عن أهداف فكري في هذه المقامة؛ فأظهر في وصفه مهابة الأخلاق الكريمة، وجمالها، وقوتها، كالفراسة، والبصيرة، والاستقامة، والعفة، والعدل، كما أظهر قبح الخصال الذميمة، وضعفها، وسوء منظرها، كالمداهنة، والنفاق، والشح، والغضب، وحب الجاه، والحسد، ثم جعل الظفر والنصر للبصيرة والاستقامة والعدل والعفة في نهاية المقامة؛ فأكد على قوة الخير في مجابهة الشر، وانتصار الحق على الباطل.

علم الدين " لعلي باشا مبارك ت ١٨٩٣م ". ([١١])

تدور مقامات (مسامرات) علي باشا مبارك في كتابه (علم الدين) حول رحلة سياحية قام بها شيخ من علماء الأزهر الشريف اسمه علم الدين، وسائح انجليزي مشتغل في بلاده بتعليم اللغة العربية وقراءة علومها، وقد حضر إلى القاهرة يريد تصحيح نسخةٍ عنده من كتاب (لسان العرب) لأجل طبعه، وتعميم نفعه، وهو يريد مَن يصحبه مِن العلماء ليعينه على مهمته وليقرأ عليه بعض علوم العربية، وإن اقتضى عمله السفر في أثناء ذلك، صحبه معه إلى بلاده أو أي بلاد أخرى.

جاء الكتاب في أربعة أجزاء، يضم بين جنباته خمسا وعشرين ومائة مسامرة، تحوي الكثير من المعارف ، والنصائح، والأخبار ، عن شتى العلوم والقضايا الاجتماعية، والسياسية، بالإضافة إلى المقارنة بين البلاد العربية، والبلاد الأوروبية، وما يتصل بثقافاتهم المختلفة، وذلك بأسلوب سهل وواضح ، في نسيج قصصي ماتع، يجذب القارئ ويستميله للقراءة دون ملل أو سأم، وقد ذكر علي مبارك في مقدمة كتابه سبب تأليفه بهذا الأسلوب؛ فقال:" وقد رأيت النفوس كثيرا ما تميل إلى السير والقصص وملح الكلام، بخلاف الفنون البحتة، والعلوم المحضة، فقد تعرض عنها في كثير من الأحيان لاسيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفي أوقات عدم خلو البال، فحداني هذا إلى عمل كتاب أضمنه كثيراً من الفوائد في أسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها، ويجد في طريقه تلك الفوائد ينالها عفواً بلا عناء حرصاً على تعميم الفائدة وبث المنفعة".([١٢])

---

[١١]) علي بن مبارك بن سليمان الروحي ، وزير مصري من المؤرخين العلماء العصاميين النوابغ ، ولد بحافظة الدقهلية ، وتلقن العربية وحذق بعض الفنون ، وسافر عام ١٢٦٠هـ مع بعثة مصرية إلى باريس ، فتعلم فنيّ الاستحكام والمفرقعات والحركات الحربية ، وعاد إلى مصر فتقلب في الوظائف العسكرية وبلغ رتبة أميرالاي ، ثم نصب ناظرا للأوقاف المصرية وأضيفت إليه المعارف فأنشأ مدارس كثيرة ، وآخر أعماله ولايته نظارة المعارف المصرية عام ١٣٠٥هـ ، وتوفي بالقاهرة ، من مؤلفاته : (الخطط التوفيقية) في عشرين جزءا ، و (علم الدين) في ثلاثة مجلدات ضمنها مباحث دينية واجتماعية ، و (حقائق الأخبار في أوصاف البحار) ، و(جغرافية مصر) ، و (تقريب الهندسة) ، وأشرف على ترجمة " خلاصة تاريخ العرب " للمستشرق الفرنسي سيديو .

يراجع في ترجمة علي باشا مبارك: الأعلام، ج٤، ص ٣٢٢.

[١٢]) يراجع: مقدمة كتاب علم الدين، ج١، ص ٧.

لم يترك المؤلف فرصة لعرض المعلومات والمعارف إلا استغلها؛ فكان حريصا كل الحرص على غاية التعليم والتثقيف بعرض الكثير من المسائل اللغوية والأدبية التي ناقشها مع السائح الإنجليزي، فطوّف بين العلوم القديمة، والحديثة، وانتقل من علم لعلم، ومن فن لآخر، ومن خبر إلى آخر، ومن قصة لأخرى، في تسلسل بديع.

وبنهاية الكتاب يجد القارئ متعة كبيرة لتحصيل الكثير من المعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة بين العلوم القديمة، والحديثة، العلوم الشرعية، والعربية، والطبيعية، والأدب، والتاريخ، والقصص، بأسلوب ماتع.

أهداف مقامات علم الدين.

كان هدف مقامات علي مبارك واضحاً ومحدداً ، وهو تعليم الناشئة وتوجيههم بأسلوب قصصي جذاب، وذلك خدمة لوطنه للارتقاء به إلى مراتب العلا، وقد نص على ذلك في مقدمة كتابه قائلا:" ومن أعظم ما نرى أنفسنا مدينين له مطالبين من جهته مغمورين بحقوقه المقدسة، هذا الوطن الجليل الذي نشأنا به، وعشنا فوق أرضه ... فلزمنا أن نقدره حق قدره ونأتي على آخر جهدنا واستطاعتنا في منفعته وخيره، ولا شيء أنفع له وأجلب للخير والبركة إليه من تعليم أبنائه، وبث المعارف والفنون النافعة فيهم حتى يعرفوا حقوقه، ويكونوا يداً واحدةً في نفعه وخدمته".(١٣)

حديث عيسى بن هشام " لمحمد المويلحي ت ١٩٣٠م".(١٤)

بدأ محمد المويلحي مقاماته الموسومة بـــ (حديث عيسى بن هشام) بمقامة بعنوان (العبرة) ، كانت بمثابة مقدمة تمهيدية لما تلاها من المقامات ، تحكي ما حدث للراوي والبطل (عيسى بن هشام) وهو يمشي بين القبور يحدّث نفسه متأملًا ومفكراً في أحوال الموتى وعجائب الحدثان ، وتقلب الأزمان وأسرار البعث والنشور ، وبينما هو مستغرق في خواطره وأفكاره ، إذا برجّة عنيفة من خلفه أصابته بالخوف والذعر ، فرأى قبراً انشق وخرج منه " رجل طويل القامة عظيم الهامة عليه بهاء المهابة والجلالة ورواء الشرف والنبالة " (١٥) ، ناداه واقترب منه ، ودار حديث بينهما كشف عن هوية ذلك الدفين الذي خرج من قبره ، وهو أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية

---

١٣) يراجع: مقدمة علم الدين، ج١، ص ٦.

١٤) محمد بن إبراهيم بن عبد الخالق بن إبراهيم المويلحي ، أديب اشتهر بكتابه " عيسى بن هشام " ونشر أبحاثا ومقالات كثيرة في كبريات الصحف المصرية ، نسبته إلى مويلح (من ثغور الحجاز) ومولده في القاهرة ، تعلم في الأزهر ، ثم في مدرسة الألبحال، تولى منصبًا في وزارة الحقانية بمصر عام ١٨٨١م فاستمر سنين ، ونشبت الثورة العرابية فكان من رجالها ، وأصدر منشورا ثوريا ، وعزل بعد الثورة ، وعمل في تحرير بعض الصحف ، وأنشأ مع أبيه جريدة " مصباح الشرق " عام ١٨٩٨م ، وعين مديرا لإدارة الأوقاف فظل إلى عام ١٩١٥م واعتزل العمل ، فلزم منزله ، وألف كتابه الثاني " علاج النفس " ، وتوفي ليلة عيد الفطر في منزله بحلوان من ضواحي القاهرة .
يراجع في ترجمة محمد المويلحي: الأعلام، ج ٥، ص ٣٠٥.

١٥) حديث عيسى بن هشام، ص ٣.

المصرية، وطلب من عيسى بن هشام أن يصطحبه إلى بيته ليحصل على ملابسه وفرسه وسلاحه، وفي الطريق واجها موقفًا ترتب عليه ذهابهما إلى مركز الشرطة حيث يصور المويلحي طبيعة الحكم في مصر، ثم تتوالى الأحداث التي قصد منها المويلحي تصوير الحياة المصرية في شتى مظاهرها الاجتماعية، وعادات معاصريه، وأخلاقهم، في مقارنة بين الماضي والحاضر، كما في مقامات (الشرطة أو البوليس، النيابة، المحامي الأهلي، المحكمة الأهلية، لجنة المراقبة) التي كشفت عن سلوكياتٍ دخيلة على المصريين كالخداع، والاحتيال، والرشوة، والإهمال في العمل، وعدم احترام الكبير، مما أصاب الباشا بصدمة أفقدته الإدراك، وذلك كله بأسلوب سهل، وواضح ، ودقيق في وصف الواقع والحقائق.

أهداف مقامات حديث عيسى بن هشام.

كان هدف المويلحي في حديث عيسى بن هشام إصلاحيًا تعليميًا؛ فانتقد الأوضاع السلبية في المجتمع لتقويمها، وكشف عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وعرّف بنظام الحكم الجديد في مصر، وإداراته، وعرّف بالكثير من مستجدات العصر كأنواع المحاكم- الشرعية والأهلية والمختلطة والإدارية والتأديبية والعسكرية والقنصلية- لتعليم القارئ الفرق بينها.

- **ليالي سطيح " لحافظ إبراهيم ت ١٩٣٢م ". ([١٦])**

يقترب موضوع (ليالي سطيح) من موضوع (حديث عيسى بن هشام) ؛ إذ عمد كلا المؤلفين إلى بعث شخصية من عصر قديم لتكون شاهدة على العصر ، ونافذة نطل منها على أفكارهما ، وجسراً يعبرا من خلاله إلى عقل المتلقي ، وكان سطيح- أشهر الكهنة العرب في العصر الجاهلي- هو الشخصية التي استدعاها حافظ إبراهيم لتكون مصدر الحكمة والعبرة والتوجيه ، وكانت الليالي التي قضاها الراوي / أديب من أبناء النيل ، مع سطيح وابنه سبع ليالٍ ، جعل عنوان كل ليلة رقماً يدل على ترتيبها؛ فالليلة الأولى دارت أحداثها حول هذا الأديب الذي خرج يناجي النيل ليروّح عن نفسه ويخفف ألمه، ثم كان لقاؤه الأول مع سطيح عندما سمع صوت إنسان يسبح ربه، فانطلق

---

[١٦]) محمد حافظ إبراهيم فهمي المهندس ، الشهير بحافظ إبراهيم ، شاعر مصر القومي ، ومدون أحداثها نيفا وربع قرن ، نظم الشعر في أثناء الدراسة ، اشتغل محاميا ثم التحق بالمدرسة الحربية ، وتخرج عام ١٨٩١م برتبة ملازم ثان ، ألف مع بعض الضباط المصريين جمعية سرية وطنية ، اكتشفها الانجليز فحاكموا أعضاءها ومنهم حافظ فأحيل إلى الاستيداع ، فلجأ إلى الشيخ محمد عبده وكان يرعاه ، فأعيد إلى الخدمة في البوليس ثم أحيل إلى المعاش فاشتغل محررا في جريدة الأهرام ، ولقب بشاعر النيل ، وطار صيته واشتهر شعره ونثره ، فكان شاعر الوطنية والاجتماع والمناسبات ، وعين رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية عام ١٩١١م فاستمر إلى قبيل وفاته ، وكان قوي الحافظة راوية ، جهوري الصوت ، بديع الإلقاء ، وفي شعره إبداع في الصوغ امتاز به عن أكثر أقرانه ، من مؤلفاته : ديوان حافظ ، و البؤساء ، و ليالي سطيح ، وكتيب في الاقتصاد ، والتربية الأولية .

يراجع في ترجمة حافظ إبراهيم: الأعلام، ج٦، ص ٧٦.

وليالي سطيح، حافظ إبراهيم، مع دراسة تاريخية تحليلية للعصر والكاتب والكتاب لعبد الرحمن صدقي، ص١٣.

إليه عله يظفر بأحد العباد الصالحين ، لكنه لم يره ، وسمع نصحه وطلبه بالعودة في اليوم التالي، واكتفي في تلك الليلة بما قاله سطيح: " فانكفئ إلى كسر دارك، وبالِغ في كتم أسرارك، وأقبِل غداً مع الليل، وترقَّب طلوع سهيل، ومتى سمعت من قبلنا التسبيح، فقل لصاحبك الذي يليك، هلم إلى سطيح" (١٧)، أما الليلة الثانية فكانت عن المرأة وقضية الحجاب والسفور، وأشار إلى الابتذال الذي أصاب بعض النساء وانعكس على لباسهم وكلامهم وأخلاقهم فصاروا من رواد الملاهي والمراقص، وفي الليلة الثالثة كان الحديث عن توتر الأوضاع في سورية الذي أدى إلى لجوء كثير من السوريين إلى مصر ثم توتر العلاقة بين المصريين والسوريين المقيمين في مصر، وفي الليلة الرابعة تحدث عن الامتيازات الأجنبية في مصر، والظلم المترتب عليها تجاه المصريين، وفي الليلة الخامسة تحدث عن مهنة الصحافة وأهمية الحفاظ على شرف الكلمة وصدق الأخبار، وفي الليلة السادسة تحدث عن الأدب وعن الشاعر أحمد شوقي، وفي الليلة السابعة تحدث عن الثورة السودانية وحادثة الذخيرة.

تناول ليالي سطيح الفترة من ١٨٨٢م إلى ١٩٠٦م، فسلط الضوء على الأحداث التاريخية والسياسية في تلك الفترة، مثل :حملة السودان، والامتيازات الأجنبية، وحادثة دنشواي، وعرّف بشخصياتها، مثل :جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، وكتشنر، واللورد كرومر، وغيرهم، وعالج كثيراً من القضايا الاجتماعية، مثل: سفور المرأة ، وتفضيل الناس للوظيفة الحكومية على العمل الحر، وعلاقة التعليم بالتأهيل للعمل، وأهمية العلم لنهضة الأمة، وضرورة إنشاء الجامعة، وأشار إلى بعض الظواهر الاجتماعية السلبية في المجتمع، مثل: شرب الخمر، والتردد على الملاهي الليلية، وانتشار اللهو والمجون .

استطاع حافظ إبراهيم بهذه المقامات أن يؤرخ لفترة من تاريخ مصر الحديث، ويحكي تفاصيل الأحداث السياسية في عهد الاحتلال الإنجليزي بإدانة واضحة للاحتلال، ووصف البيئة الاجتماعية للمصريين بأخلاقهم، وعاداتهم، وسلوكياتهم، بنقد قوي، بلسان أحد الحكماء:" لقد نزلت هذه الأمة منزلة من الخمول هبطت بها إلى مصافّ العجماوات حتى خشيتُ أن يخطئها البعث في يوم البعث".(١٨).

أهداف مقامات ليالي سطيح.

قصد حافظ إبراهيم أن يؤرخ لفترة سياسية مهمة في تاريخ مصر الحديث، وأن يوجه نقداً اجتماعياً بناءً لتحقيق الإصلاح والنهضة، فدعا إلى الإقبال على العلم والأخذ بأسباب النهوض، والتخلي عن

١٧) ليالي سطيح، ص ٣.

١٨) ليالي سطيح، ص ٨١.

العادات السلبية التي انتشرت في عهد الاحتلال، فكانت لياليه وثيقةً تاريخية، ونقداً للواقع، وكشفاً عن الخلل، وفضحاً للفساد، ودعوة للإصلاح والتغيير، وأخذ العبرة والحكمة، بأسلوب فني ماتع.

بناءً على ما سبق تتلخص غايات فن المقامة التي قصد إليها الأدباء في العصر الحديث، فيما يأتي:

- **الدعوة إلى التجديد والإصلاح، والنهوض بالوطن:** تجلت هذه الغاية في جميع المقامات المدروسة؛ فلم تخل مقامة من عاطفة الانتماء الوطني التي كانت سبباً وراء الدعوة إلى الإصلاح والنهوض والارتقاء.
- **النقد المجتمعي:** ظهر في جميع المقامات نقدٌ إيجابيٌ بنّاءٌ بأسلوبٍ رامزٍ، ينبه المثقفين بما يحمله من مناقشات، وانتقادات للقضايا المجتمعية.
- **التهذيب والتوجيه:** ارتبطت غاية التهذيب والتوجيه بالتعبير عن الخواطر النفسية، كما تجلى في (المقامة الفكرية)، ومقامة (في الفرنسيس)، ومقامات (علم الدين)؛ إذ قصد الشيخ العطار إلى توجيه تلاميذه نحو مبادئ المنهج الإصلاحي والفلسفة التنويرية، عندما تحاور مع علماء الحملة الفرنسية وناقشوا بعض المسائل اللغوية وكتب العلماء الأقدمين، كذلك قصد عبد الله فكري، وعلي مبارك، تهذيب النفس الإنسانية وإصلاح سلوكها بوصف قيمة الأخلاق الكريمة، وقوة الخير على الشر.
- **التعليم:** تجلت غاية التعليم في مقامات (علم الدين) و(حديث عيسى بن هشام)؛ إذ قصد كلاهما إلى تعليم الناشئة وبث المعارف والفنون النافعة فيهم، وإمدادهم بالمعلومات حول نظام الحكم الجديد في مصر، وإداراته، ومستجدات العصر.
- **الإمتاع الفني:** جاءت جميع المقامات المدروسة في أشكال فنية جاذبة بأسلوبها القصصي، وما تحويه من رموز وإشارات تجعل القارئ يتفاعل مع نصوصها، ويتأثر بها، ويعتبر بها ويصدقها، مقتنعاً بحقيقتها، ومتناسيا أنها من صنع الخيال.

وقد لوحظ أن المقامة المصرية في العصر الحديث خلت من الغايات القديمة، مثل السخرية، والإضحاك، والكدية، والاحتيال، والمدح، والوصف، والتسلية، وإظهار البراعة في الكتابة والإنشاء، وإثبات التفوق في المسائل اللغوية، واستطاع المقاميون أن يمثلوا مجتمعهم وبيئتهم المصرية، ويعالجوا مشكلات وطنهم السياسية والتاريخية.

أما خصائص المقامة شكلًا ومضمونًا، فهذا محور الدراسة في المبحثين التاليين إن شاء الله.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

المبحث الأول

خصائص المضمون

لقد تنوعت الموضوعات والمضامين الفكرية في المقامات المصرية في العصر الحديث، وكان من أهمها: النقد المجتمعي، والتأملات الفكرية، والوصف، والتوجيه، والإرشاد.

النقد المجتمعي.

يمثل هذا الموضوع المادة الرئيسة التي يقوم عليها مضمون المقامة المصرية في العصر الحديث ؛ فأكثر المقامات تعتمد على نقد الواقع المجتمعي بهدف الدعوة إلى التغيير والإصلاح ، وقد تجلت هذه الخاصية المضمونية في جميع المقامات المدروسة ؛ فمثلًا الشيخ حسن العطار في مقامته **(في الفرنسيس)** وجه نقداً لمجتمعه بأسلوب واضح ومباشر ، يلوم سلبية التفكير التي دفعتهم إلى الإعراض عن التثاقف وتبادل العلوم والمعارف مع العلماء الأجانب ؛ فهو يرى ضرورة الاستفادة من تقدم الآخرين، والاطلاع على ما وصلوا إليه في العلوم الطبيعية، والهندسية، وغيرها، وبناءً على هذا التفكير السلبي السائد في مجتمعه باتهام كل من يتعامل مع هؤلاء الأجانب بالعداء لوطنه، رفض طلب علماء الحملة الفرنسية بمرافقتهم، معللًا سبب رفضه :" **فسوّفت في الإجابة، وأضمرت على عدم الإنابة ، علماً مني بأن هذا أمر تفوق عليّ منه سهام الملام ، وترمقفني بالعداوة والاحتقار لأجله كافة الأنام ، فرجعت لرشدي أقتفيه ، واستغفرت الله مما كنت فيه** " .([١٩])

أما في **المقامة الفكرية** فكان النقد المجتمعي من طرفٍ خفي؛ إذ تحدث عبد الله فكري عن نظام الحكم وما يعتريه من فسادٍ يسبب الاختلال والضعف، وأشار من جهة أخرى إلى الأسس الصحيحة، والمبادئ القويمة التي تضمن قوة الإدارة الحاكمة في أي دولة، وذلك أثناء رحلته السياحية في مملكة الباطن التي جعلها معادلًا موضوعياً لأي دولة أو جمهورية أو مملكة؛ حيث وجد العقل هو الملك ، والبصيرة وزيره الأول ، والحواس الخمس سفراءه ، ووصف أهل هذه المملكة بأنهم " **متبدلي الأوضاع متلوني الأخلاق والطباع ، فتثور بينهم الشرور في كثير من الأمور لكثرة ما يقع من المعارضة والجدال والمناقضة لما بينهم من مباينة الأهواء ومخالفة الأراء ، وقد تعرض لهم الأفكار المناسبة والأراء الصائبة فتخالفها اللذات والشهوات والأغراض والحاجات ؛ فالمروءة واللطف والرحمة قد يعارضها حب الجاه والحرص على نفوذ الكلمة ، وكذلك الحلم والتدبر يعارضه الغضب والتهور ، وهكذا يخالف كل منهم قرناءه ، ويريد أن يروج أراءه ، ويحب أن يغصب زمام الرياسة وأن ينفرد بالتدبير والسياسة فيشتد بينهم النزاع والجدال ويكثر القيل والقال ويزيد الاختلال** " .([٢٠])

---

[١٩]) الجذور الإسلامية للرأسمالية، بيتر جران، ص٣٣٣.

[٢٠]) المقامة الفكرية في المملكة الباطنية، ص٦.

وحقيقة الصراع الذي وصفه عبد الله فكري بين رجال الدولة وطائفة المقاصد الخيرية ، مثل البصيرة، والعدل والشجاعة، والكرم ، والعفة، والحكمة ، والاستقامة ...، وبين جماعة الأغراض النفسية وطائفة الخصال الذميمة والأغراض والأهواء ، مثل الحسد ، والجبن ، والكبر، وحب الجاه، والظلم، والخيانة، والغدر ... هو في حقيقته صراع بين من يحملون هذه الصفات من رجال مجتمعه، وقد استطاع بوساطة التشخيص أن يوجه نقده للواقع المجتمعي بأسلوب رامز وتلميح خفي، فقال بلسان الفراسة :" **واعلم أن من أحوال هذه الدولة ومقتضى قوانينها المرعية وعاداتها الشرعية ، أن لا يحتجب الملك أبدا عن أحد من أفراد الرعية وذلك بلا تخصيص ومن غير استثناء فيدخل كل واحد منهم مجلسه العام في أي وقت شاء فلا يمنعهم أحد** " .([٢١]) ، وهو بذلك يومئ إلى ما ينبغي أن يكون، حتى تطمئن البلاد والعباد ، ثم بين أن من أسباب اختلال أمور الحكومة وفساد انتظام الأحوال، الشقاق الواقع بين االعقل/ الملك، والبصيرة/ أكبر وزرائه، وقبول الملوك للمداهنة ، فقال:" **وما زالت تنمق له المقال ، وتخيل له الهدى في الضلال حتى انقاد للشهوات يعمل برضاها ويسمع أراءها فيحكم على مقتضاها ، فصار في الحقيقة أسيرها وقد كان قبل ذلك أميرها ، وهكذا تفعل المداهنة مع من يقبلها من السلاطين وكذلك قرناء السوء الشياطين ، وعند ذلك اشتد اشتعال نار الاختلال وانتشر شرر الشر في جميع المحال فضعف أمر تلك الدولة** " .([٢٢]) ، ومن أسباب الاستقرار وصلاح الأحوال ، الالتزام بمبدأ الشورى ، والتحلي بالفضائل والمكارم من العفة والاستقامة والإنصاف ، وتجنب الغفلة والمداهنة التي تورد المهالك وسوء العواقب ، فقال بلسان الخيال:" **ثم إنا لقينا البصيرة فحادثناها في ذلك الشأن ومضينا ثلاثتنا على الفور إلى حضرة العقل السلطان ، وأبدت الصحة حقيقة الحال في مرآتها، وعرفته ما فعلته الغفلة من تبديل صور الجماعة وهيآتها، ثم أرسلت البصيرة فأحضرت الندامة واستحضرت معها أيضا النفس اللوامة فأدبت بواسطتهما الحاكم المشار إليه وأعادته ثانيا إلى ما كان قبل ذلك عليه، وغلبت البصيرة على الغفلة فهزمتها، وأزاحت خيالات سحرها الموجودة وحسمتها، وزال الاختلال والفساد من كل مكان، وعاد كل شيء لأصل صورته الحقيقية كما كان** " .([٢٣])

وقد تجلى نقد المجتمع في (حديث عيسى بن هشام) حتى شملها كلها بأسلوب صريح ومباشر ، ومنه ما جاء في مركز الشرطة عندما سيق الباشا إلى هناك إثر مشاجرته مع المكاري الذي حاول الاحتيال عليه للحصول على المال ؛ حيث اتهم الباشا أنه امتنع عن دفع الأجرة بعد ما قام بإيصاله

---

[٢١]) المقامة الفكرية، ص١٠.

[٢٢]) المقامة الفكرية، ص ٣٠.

[٢٣]) المقامة الفكرية، ص ٣١.

بوساطة حماره، والحقيقة أن الباشا لم يطلب منه إيصاله، ولكن هذا ما ادعاه المكاري" **اركب يا أفندي فقد عطلتني وأنا أسير وراءك منذ ساعتين ... وكيف تنكر إشارة يدك التي دعوتني بها وأنت تتكلم مع صاحبك** "، ثم استغاث برجال الشرطة وذهبوا جميعا إلى المركز، وهناك رأى الباشا ما هاله وأرعبه، حتى ظن أن هذا اليوم هو يوم الحشر، " **فلما وصلوا إليه وصعدوا السلم بدأ المكاري يصرخ ويصيح ، فقابله أحد عساكر المراسلة فضربه ليسكته لأن "حضرة المعاون" غريق في نومه ، فدخلنا جميعًا في حجرة " الصول " لضبط الواقعة ، فوجدناه يأكل والقلم في أذنه وقد نزع "طربوشه" وخلع نعليه وحلّ أزرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين ، أظنهما من أقربائه يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهي وسعة سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القطر وقاعدة الملك ، وما في قدرته من حبس أي شخص كائنا من كان وشهادته عليه بما يجري في هواه ، فطردنا جميعا من الحجرة حتى ينتهي من طعامه ، فخرجنا ننتظر ، وأراد الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألم به من الحزن فخانته يده فسقط فوق جندي كان يكنس الأرض هناك ، فأخذ الجندي في السب والشتم ، ودخل إلى حجرة "الصول " هاجمًا فقال له: إن المتهم الذي يشتكي منه المكاري تعدًى عليّ "في أثناء تأدية وظيفتي" فضربني بكل جسمه، فأمر "الصول" بإحضاره ونادى كاتبه العسكري فطلب منه أن يحرر "محضرين" محضر مخالفة ومحضر جنحة، وأملى عليه كلاما مصطلحا عليه لم أفهم منه حرفا ... ختم المحضرين وأمر المتهم أن يؤخذ إلى "خشبة المقاس" وتحرير " ورقة التشبيه" فجاء العسكري صاحب الدعوى وأخذ بيمين صاحبي وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاقه أنواعًا من الأذى في مقاسه ، كل هذا والباشا كالمغشي عليه من الدهشة والذهول"**([٢٤])

ولا يخفى ما في هذا النص من نقد لاذع لأحوال المجتمع ؛ "فالمعاون" غارق في نومه في محل عمله /مركز الشرطة، و"الصول" يأكل في مكتبه وقد تحرر من زيه الرسمي، وحوله بعض أقاربه يشاهدون ما يتمتع به من سلطة مطلقة وجاه وسيطرة ، تجعله يحبس من أراد في أي وقت كان حسب ما يملي عليه هواه، والعساكر يسبون ويشتمون الناس بلا حساب أو عقاب ، بل ويعتدون عليهم كذبا وافتراءً بشتى ألوان الإيذاء ، وهذا المشهد يكشف ما كان يتصف به رجال الشرطة في ذلك الوقت من إهمال في العمل ، وظلم ، وكذب وافتراء ، واستخفاف بحقوق الناس، مما يدل على فساد الأخلاق في ذلك المجتمع .

ويستمر هذا النقد بعد التحويل إلى النيابة العامة عندما يشرح عيسى بن هشام للباشا أن وكيل النيابة هو "**أحد أبناء الفلاحين ، أرسله أبوه إلى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الأمة**

[٢٤]) حديث عيسى بن هشام ، ص٩ .

ولاية الدماء والأعراض والأموال ... والقاعدة في هذا النظام أن الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة ، وصاحب الشهادة إذا قدّمها للحكومة يكون له الحق في الاستيلاء على مرتب وظيفة يزيد على الدوام ويرقى " ، وبينما ينتظر الباشا وابن هشام العرض على وكيل النيابة إذا بشابين ــ من قرناء النائب في المدرسة ــ قد أقبلا يختالان في مشيتهما ولا ينظران إلى من حولهما كبرا وإعجابا ، والحاجب يتقدمهما ليدفع الناس من طريقهما حتى وصلا إلى حجرة النائب " **فقام لهما عن مجلسه ، وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته ، واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهم وطردهم ونهرهم ، واشتغل النائب بطيّ المحاضر ورفع المحابر ، حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل ... (الزائر الأول): بعد السلام والجلوس ــ لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أن ينتهي اللعب؟ (النائب) : لأنه كان قد مضى من الليل أكثره ، وعندي من القضايا ما يضطرني إلى التبكير ، (الزائر الثاني): وهل سمع أحد أن القضايا تعوق الإنسان عن مجالسة الإخوان ، ومثل هذا العذر يعتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها ، أو لم تعلم أن فلانا وفلانا وسواهما من أقرانك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة ، وأخص بالذكر منهم فلانا فإنه يكتفي بأن يمر عليها بلحظة منه ويستغني عن مطالعتها ويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للإحاطة بفهمها ، وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها إليه لاستيفائها ، ولا محل لتجديد التحقيق بعده وتضييع الوقت سدى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى ، (النائب) : ذلك ما أفعله ، ولكن لابد من التمسك بالظواهر والأصول على قدر الإمكان ، (الزائر الأول) : أفما عندك الكاتب يقوم في ذلك مقامك ويكفيكه ، (النائب): صدقت إن الكاتب ليكفي ، والقول الصحيح أن السبب في مفارقتكم أمس وفي ترك اللعب هو أنني خسرت ما كان معي من مرتب الشهر ونحن لا نزال في أوائله "** ([٢٥])

نجد عيسى بن هشام يركز نقده على عادةٍ قبيحةٍ صارت قاعدة في النظام ، وهي الاعتماد على الشهادات للحصول على الوظائف الحكومية حتى لو كان المتقدم لها فاقداً للعلم والكفاءة ، ومن ثم وصفه بالسطو والاستيلاء على راتب ليس من حقه ، وهذا ما ترتب عليه حالة الإهمال في العمل التي تفشت في المجتمع ووصفها عيسى بن هشام في الحوار السابق بين النائب وصديقيه ؛ فالنائب عطل أصحاب القضايا لجلسة شخصية مع أصدقائه ، والحاجب توجه للناس بامتهان يسحبهم وينهرهم ويطردهم ليخلي المكتب ، ووكلاء النيابة يلعبون القمار ، ولا يفحصون القضايا ، فمنهم من يكتفي بنظرة سريعة ، ومنهم من يفوض كاتبه في ذلك ، ومنهم من يكتفي بمحاضر البوليس

[٢٥]) حديث عيسى بن هشام، ص ١٦، ١٧.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

ــ المشار إلى عدم واقعيتها سابقا ــ وفي هذا الوصف نقد ظاهر لفئة تعد من صفوة المجتمع ، بل ويقع على عاتقها إقامة العدل ، ورد الحقوق ، والدقة في تحري الحقيقة ، ولكن عمّ البلاء، وفسدت الأخلاق ، وكان لنظام الحكومة حينئذٍ دور في ذلك .

ونجد إفي ليالي سطيح إشارات إلى عادات اجتماعية سلبية دأب عليها المصريون، منها التمسك بحبال الوظيفة الحكومية التي يسعى ويجتهد المصري للحصول عليها مهما كلفه ذلك من ثمن؛ لأنه يرى فيها الراحة، والرزق الدائم، ولا يعبأ إن كان كفؤا لها أم لا ، وأشار حافظ إلى هذا المعنى على لسان سطيح مخاطباً أحد السوريين :" **أنتم تعلمون أن المصري يعبد خدمة الحكومة، فهو يصرف إليها همه ، ويقف عليها علمه ، فهي إن فاتته فاته الأمل ، وفتر نشاطه عن السعي والعمل ، وهو لا يفتأ ينتظر الدخول فيها بقية عمره ، انتظار القوم عودة الحاكم بأمره ، فما ضركم لو جاملتموهم ... حُبّب إليكم الحركة وحبب إليهم السكون ، جُبلتم على الجد وجبلوا على المجون** ".([٢٦])

<u>التأملات الفكرية.</u>

من السمات الفنية التي اعتمد عليها كتّاب المقامة استخدام المحسنات اللفظية، والألفاظ المنمقة، والصور البديعة، فكان اهتمامهم بالمضمون أقل من اهتمامهم بالشكل، وهذا لا يعني خلو المقامة من بعض التأملات الفكرية العميقة، وكانت المقامة الفكرية في المملكة الباطنية من أبرز المقامات اهتماما بعمق المعنى، وأعلاهم تصويراً ؛ فكان موضوعها الرئيس هو العقل، ولكن كانت البصيرة هي محور التأمل والتفكر في بداية المقامة للنظر في حظ الإنسان منها ؛ هل هي في جميع أفراد العالم بقدر واحد ، أم تختلف بين البشر باختلاف الحال والزمان والمكان؟ وظل عبد الله فكري يتأمل ، ويقلب ما قيل عن البصيرة حتى رجح الرأي القائل باختلافها ، وعلل لاختياره بقوله:" **فكم بين الجاهل والعالم والمفرط والحازم والشيخ الكبير والصبي الصغير ، والناشئ في الأمصار ، والذي في الجبال والقفار ، والمعاشر للعلماء والأتقياء ، والملازم للجهلاء والأشقياء فإننا نرى بينهم بونًا كبيراً ، ونجد بين بصائرهم تفاوتًا كثيراً إلا أن كل واحد منهم فيه أصل البصيرة تحثه على الخير وتكفه عن الضير وتصعده إلى معارج الهدى ، وتبعده عن مدارج الردى** " ([٢٧]) ، ثم كان العدل والاعتدال ومجانبة الإفراط والتفريط محور التفكر والكلام ، حتى وصل إلى الحقيقة ، فقال :" **لا يمكن الوصول إلى السعادة الأبدية والراحة السرمدية إلا بهذا الاعتدال في جميع الأقوال والأفعال ... والسعيد الموفق من يراعي الاعتدال في كل حال ومكان وإن لم يقدر عليه في جميع**

[٢٦]) ليالي سطيح ، ص١١ .

[٢٧]) المقامة الفكرية ، ص٣.

الأمور فعلى قدر الإمكان " ([٢٨]) ، ثم كانت القضية الكبرى التي جلس يقدح فيها زناد الأفكار ليقف على الأسرار ويكشف الغطاء عن حقائق الأمور ، وهي : كيف يبغي الإنسان سعادة الحال ويسعى ويجتهد للحصول على راحة البال " **وعنده من العقل حاكم عادل ومن البصيرة ناصح عاقل ، وبهما يمكن أن يتوصل لما أراد ، ويحصل على خيري المعاش والمعاد ، ثم تراه يبطل رأيهما ، ويعطل سعيهما ، ويرد ما يبديانه إليه من الرأي القويم ، ويصد عما يهديانه إليه من الصراط المستقيم ؟ فيفوت ما أراده من السعادة ... ويشتري باختياره ما يحزن بما يسر ، ويخالف هذا الناصح الشفيق بإهمال أمره بعد أن جرب شؤم ذلك في الكثير من عمره ، فما زلت أتفكر ويذهب التفكر جُفاء ، وما تزداد المسألة إلا خفاءً**" ([٢٩]) ، وللإجابة على السؤال اتجه إلى مملكة الباطن في رحلة سياحية بغية الوصول إلى المراد ، وكان ملخصه أنه يجب على الإنسان أن يجعل عقله حاكما ، والبصيرة ناصحا ، والحياء والعدل لديه ، والعفة والاستقامة بين يديه ، وأن يتجنب مفاسد الشهوات ووساوسها ، وأن يحذر الوقوع في سحر الغفلة وضلالها ، وأن يقاوم الهوى والميل إلى موافقة الأغراض الدنيئة ، وأن يقرب أهل الحق والفضل ، ويبعد قرناء السوء والضلال ، وأن يستحضر الندامة والنفس اللوامة ، وإلا أصابته الغفلة بسحرها ، وسيطرت عليه الشهوات والأهواء بزيفها ، وأصبح أسيرها بعد ما كان أميرها ، وعند ذلك تتعطل البصيرة ، وتنقلب الحقيقة ، فيختل الجسم ، **ويفوت ما أراده من السعادة ، ويشتري باختياره ما يحزن بما يسر .**

ولم تخل المقامات الأخرى من التأملات الفكرية التي تشير إلى عمق تفكير مؤلفيها ؛ فالمويلحي بنى حديثه على فكرة خيالية ، عميقة ، قوية ، طريفة ، وهي فكرة ابتعاث أحد البشوات من الموت ليُصدم بمجتمع غير مجتمعه ، وعادات لا يألفها ، وقوانين لا يعرفها ، فيعيش مأساة حقيقية سببها اختلاف الواقع المجتمعي المصري وتغير البيئة المصرية ، ومنه ما قاله المويلحي على لسان الباشا بعد التعرض للكثير من المشكلات والأزمات التي كشفت معادن الناس وأحوالهم التي صاروا إليها ، وتقلبات الزمن التي ألقت بالأمراء إلى غياهب الذل ، وهو يتأمل قصر حفيده الذي يباهي في الحسن قصور بغداد ، يحيط به بستان ترصع بأنواع الزهر كأنه محلّى بصنوف اليواقيت والجواهر ، ونسيمه العليل يغني عن المسك الأذفر ، وقد التف النبات فيه ، وقامت الطيور تغرد على الأغصان ، ومع هذا المنظر البديع إذا بقوم عند باب القصر وجوههم مكفهرة وهم بين باكٍ ومنتحب وصارخ ومصطخب، يذكرون حاجاتهم وهم جميعا في يأس وقنوط يطالبون صاحب القصر بما عليه من الديون، والخدم يكتمون وجوده ويقسمون أنه لم يبق لديه درهم ولا دينار،

---

[٢٨]) المقامة الفكرية ، ص٣، ٥ .

[٢٩]) المقامة الفكرية ، ص٥.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

فقال وهو يقابل بين سعد المكان ونحس السكان: " **ما زالت بواطن الأمور ، وحقائق الأشياء تتجلى لي على وجهها ، منذ غمرني الدهر في هذه المشكلات والخطوب ، حتى تحققتُ اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنما تجري كلها على التضليل والبهتان ، وتدور على التمويه والبطلان ، وتنطوي على الغش والتدليس ، فبالله عليك من ذا الذي يرى هذا القصر بزينته وبهجته وخدمه وحشمه ، ولا يتولاه الحسد لساكنيه ، والتطلع إلى حسن حظهم وسعادة عيشهم ، ثم يرجع إلى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ، ويندب نصيبه من الحياة ، وسوء قسمته في العالم !! "**.([٣٠])

ومن النصوص التي تدخل في إطار التأمل الفكري ، ما قاله علم الدين مخاطباً نفسه ، مصبراً إياها على عسر الحال وقلة الرزق ، وهو العائل لأخواته الثلاث وأولاده الأربعة وزوجته :" **إذا كان بقسمة الله تجري الأمور فالصبر عليها مشكور مستوجب الأجور ، ومن غرس الصبر اجتنى الظفر ، والصبر على الغصة ربما أدى إلى الفرصة ، ومن فوض أمره لمولاه كفى مؤنة بلواه ، وعدم الرضا معاداة للقضا** " .([٣١]) وهو بهذا يعلن رضاه بما قسمه له الله من ضيق الرزق ، ويأمل في تحصيل الأجر على ما بذله من الصبر ، وكأنه يقول لكل محتاج : عليك بالصبر ففيه الظفر والأجر .

<u>الوصف.</u>

اعتمدت المقامة المصرية في العصر الحديث على الوصف كثيراً ، وكانت مقامات المويلحي ، وعلي مبارك ، وعبد الله فكري ، من أبرز المقامات التي تجلى فيها الوصف واضحاً ، ومنه وصف المحكمة الأهلية الذي فصّله عيسى بن هشام ليصور للقارئ كيف تكون ساحة المحكمة ، وكيف تكون أحوال الناس ومعاناتهم فيها ، في سياق التنفير من الظلم والعشوائية التي اقتحمت ساحات القضاء ، فقال :" **ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا في ساحتها أقواماً ذوي وجوه مكفهرة ، وألوان مصفرّة، وأنفاس مقطوعة ، وأكف مرفوعة ، وشاهدنا باطلًا يُذكر ، وحقًا يُنكر ، وشاكيًا يتوعد ، وجانيًا يتودد ، وشاهداً يتردد ، وجندياً يتهدد ، وحاجبًا يستبدّ ، ومحامياً يستعدّ ، وأمًّا تنوح ، وطفلًا يصيح ، وفتاة تتلهف ، وشيخًا يتأفف ، وسمعنا ألفاظًا متناقضة ، وأقوالًا متعارضة ، ورأينا المحاميَيْن عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه ،**

[٣٠]) حديث عيسى بن هشام ، ص ٩١ .

[٣١]) علم الدين ، ص ٢١ .

ويقدح جنانه ، استعدادًا للنزال في ميادين القتال ، وتأهبًا للدفاع في مواقف النزاع ، ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم ، ورفع التهمة والجرم " . (٣٢)

ومن أكثر المقامات التي استخدمت خاصية الوصف لتجلي مضمونها وما يحمله من دلالات فكرية ، المقامة الفكرية في المملكة الباطنية ، التي جعلت الأغراض النفسية ، والخصال الذميمة ، والصفات الحميدة ، والشهوات الإنسانية ، أشخاصًا لهم هيئات وأوصاف تكشف حقيقتهم ، تحذيرًا وتنفيرًا تارة ، وترغيبًا تارة أخرى ، قال (الخيال) وهو يصحب دليله (الفراسة) للتعرف على مملكة الباطن عند الملك العادل (العقل) : " **دققت النظر في جهة ذلك الملك العادل فإذا عند تخت سلطنته عن ميسرته وميمنته أمور عجيبة ، وأشياء غريبة ، تستوقف الطرف ، وتستدعي الوصف ، وبينها شخص مهيب المنظر عجيب الخبر والمخبر ، حديد المزاج ، بعيد العلاج ، قوي شديد عنيد مريد ، قليل التفكر والتدبر كثير التهور والتكبر ، وهو يلحظ الحاضرين شزرا ، ويوسعهم فحشا وهجرا ، ويكثر لمن يكلمه نهرًا وزجرًا ، وهو أرعن أحمق أهوج أخرق ، لا يمس شيئًا إلا مزقه ، ولا يعالج أمرًا إلا أتلفه وخرقه ، فقلت للدليل : ما هذا الشخص العجب ، فقال هذا هو الغضب ، ثم رأيت في طرف آخر شخصًا نحيل البدن طويل الحزن ، أصفر اللون أحمر العين ، أضناه الهم وأفناه السقم والغم ، وبإحدى يديه قدح فيه سم ناقع وفي اليد الأخرى منه سيف قاطع وهو لا ينفك يسكب السم على بدنه ورأسه ، ويخرج بذلك السيف الباتر أعضاء نفسه ، فقلت : من هذا الشخص البادي الكمد البالي الجسد ، فقال : هذا هو الحسد** " .(٣٣) ، وما كان هذا الوصف القبيح للغضب والحسد من الخصال الذميمة ، إلا تنفيرًا منهما وتحذيرًا من عاقبة أمرهما ؛ فلا يقترب منهما أحد ، ويتخلى عنهما من اتصف بهما .

ومن جانب آخر يكون الوصف إظهارًا للجمال ، وحثًا على التحلي بفضائل الخصال ، والالتزام بمبادئ الحوار ، مثل ما جاء في وصف البصيرة ، عندما قال : " **ثم رأيت امرأة مخدرة معظمة موقرة ، يلوح عليها الجمال ، وتحيط بها أبهة الكمال ، ويبدو عليها اللطف والكرم ومحاسن الشيم وعلو الهمم ، ورأيت كل أحد يعظمها ويحييها ويكرمها إلا جماعة من الأسافل والأوباش الأرازل ، كانوا لا يوقرونها بل رأيتهم يحقرونها ، ولكنها كانت لا تحفل بما يبديه أهل الفساد والشقاق ، كما أنها لم تكن تنخدع بتملق أهل النفاق ، بل كانت تنظر فيما يعرض من الدعاوى والشكاوى بالعدل والحلم ، وتفصل فيها الحكم بالفطنة والذكاء والفضل والعلم ، ورأيت على رأسها إكليلًا من الزهر لا يذبل مدى الدهر فلا يزال يرف خضرة ويتلألؤ بهجة ونضرة ، ويجلب**

---

٣٢) حديث عيسى بن هشام ، ص٢٣ .

٣٣) المقامة الفكرية ، ص ١٢ .

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

للعين قرة وللخاطر مسرة ... ورأيت العقل يخاطب كل من حضر في ديوانه ويستشير هذه المرأة الفاضلة في جميع شانه ، فعسر عليّ معرفة أمرها وسألت الدليل عن خبرها فقال هي البصيرة المعروفة بحسن أرائها وهي من نبهاء هذه الدولة ونبلائها وأعظم أمرائها ووزرائها ، وسلطاننا يوقرها ويخشاها ويحذرها ويحرص على استجلاب قلبها وإرضائها ، ويستنهض العامة والخاصة لموافقة أرائها فتدور الأمور على السداد وتطمئن البلاد والعباد " .(٣٤)

وقد يكون الوصف في سياق التنبيه وأخذ العبرة ، والدعوة إلى النهوض والتغيير ، كما جاء بلسان سطيح واصفًا حال مصري قُتل أخوه على يد أحد الأجانب ، مشيراً إلى الظلم الذي يتعرض له المصريون تحت مسمى الامتيازات الأجنبية ، ساخراً ومتهكمًا من هذه الأوضاع التي أذلت المصريين في بلادهم وأجبرتهم على الخضوع ، وهو يريد بذلك استنهاض عزائمهم للخلاص من حياة الإذلال وعدم الاستسلام لرجال الاحتلال ، **فقال:** " **واجد موتور ، وساهد مقهور ، قد واصل النواح في الغدو والرواح ، على دم هُدر ، وأخ قُبر ، أيْ فلان ، مادام امتياز الأجانب ، فلغير المصري عزة الجانب ، الرومي يطعن بمديته ، ويستظل بعلم دولته ، والمصري يحمل القتيل ، ويخضع خضوع الذليل ، كأنما دية القتيل المصري كرامة للقاتل الرومي** " .(٣٥)

<u>التوجيه والإرشاد.</u>

كانت فكرة التوجيه من أخص خصائص المضمون التي قصدها كتّاب فن المقامة في العصر الحديث ، سواء بصورة تقريرية مباشرة أو بصورة غير مباشرة تُفهم باستقراء ما وراء النص ؛ فالشيخ حسن العطار قصد توجيه تلاميذه ــ بصورة غير مباشرة ــ إلى الإفادة من مختلف المعارف والعلوم والفنون ، وعدم الانعزال عن التثاقف مع علماء الحملة الفرنسية ، وقصد عبد الله فكري ــ مسخدما التشخيص بأسلوب خيالي واضح ــ توجيه الناس إلى التحلي بالفضائل وتنفيرهم من الرذائل ، وقصد علي مبارك توجيه الناشئة إلى إصلاح النفس ، والالتزام بالمبادئ والقيم ، وطلب العلم ، وقصد المويلحي ، وحافظ إبراهيم توجيه عناية المجتمع إلى الفساد الذي تفشى فيه بهدف الإصلاح والتغيير .

ومن التوجيه الذي جاء بأسلوب صريح ما جاء على لسان زوجة علم الدين في مدح العلم وأهله ، ثم ذم الجهل وأهله ، ترغيباً في طلب العلم ، وتنفيراً من الركون إلى الراحة والاستسلام للجهل ، فقالت عن العلم :" **إنه نور تستضيء به حواس الإنسان فينظر بها إلى أن تنكشف له مخدرات**

---

٣٤) المقامة الفكرية ، ص ١٤ .

٣٥) ليالي سطيح ، ص١٤ .

حقائق الأكوان ، فيكسو صاحبه حلل الجمال والهيبة والإجلال ، وإن الجهل يطمس بصيرة صاحبه ويهوي به في ظلمة الغي ومعاطبه ، ويحجبه عن مشاهدة الأسرار الربانية ، ويمنعه عن إدراك ما أودع في الأكوان من اللطائف الخفية ويقوده إلى وادي الخبال ويكسوه ثوب المهانة والإذلال فلا يرى إلا ظواهر الأشياء فيحكم عليها بأحكام باطلة وأوهام عاطلة فيكون بمعزل عن الإرادة الربانية والحكم الإلهية فلا يميز على الحقيقة ما ينفعه مما يضره ، ولذا يقال في الأمثال (الجاهل عدو نفسه) ومن كان عدو نفسه كان عدو ربه ، ومقتضى القياس الذي حرره أهل الميزان وقرروه والمفهوم الذي استنتجوه من هذا المثل وقرروه أن يقال (العاقل حبيب نفسه) ومن كان حبيب نفسه كان حبيب ربه وذلك لأن من عرف نفسه عرف ربه " .([٣٦])

ومن التوجيه الذي جاء على لسان سطيح الكاهن- بصورة واضحة ومباشرة- قوله عن قيمة الحرية في حياة الشعوب؛ بأنها نعمة تستوجب شكر الله عليها، وبذل النفس في سبيلها والحفاظ عليها، قوله:" **عن الحرية سألت ، وعلى الخبير سقطت، اعلم يا ولدي أنها معنى الوجود وملاك الحياة ، ففي فقدها سجن النفوس ، وعقال العقول ، وقيد الأفكار ، وما امتُحنت أمة بمحنة هي أقتل لها من فقد الحرية ، وخمود الشعور ، وإني أراكم على ما أنتم فيه من الضعف والتقاطع قد أمتعكم الله بحرية الحياة ، فأمسيتم تتقلبون في نعمة لم تعرفوا لله حق الشكر عليها** "([٣٧])

وقوله عن أهمية اللغة والأدب في حياة الأمم، لتوجيههم نحو ضرورة الحفاظ على اللغة العربية والاهتمام بالأدب؛ فرقيّ الشعوب مرتبط بقوة لغتهم ورقي أدبهم وتيقظ وجدانهم، ومجد الأمة يتوقف على ما يبذله علماؤها وأدباؤها للتأثير في نفوس العامة وتنبيه عواطفهم :" **واعلم يا ولدي أن عز الأمم موقوف على عز اللغات، وأن حياة اللغات مستمدة من حياة آدابها، فإذا ظهر علم الأدب في شعب كان ذلك آية لظهوره، وعلامة على استعداده، فهو الذي يهيئه لقبول أسباب الرقي والعمران، ويعده لمساغ أنواع العلاج، ويروضه على احتمال المصاعب في سبيل المعالي**".([٣٨])

نخلص مما سبق أن المقامة المصرية في العصر الحديث عالجت موضوعات مختلفة بما في ذلك التأملات الفكرية، وغلب عليها الطابع النقدي، والتوجيهي، والوصفي؛ فكان فن المقامة في ذلك العصر ناقداً للمجتمع المصري، مناقشاً قضاياه ، واصفاً أدواءه وخصاله القبيحة من الكذب، والفوضى، والفساد الإداري، والنصب والاحتيال، والانحلال الأخلاقي، مؤرخاً لحقبة مهمة من

[٣٦]) علم الدين ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

[٣٧]) ليالي سطيح ، ص٢٦ .

[٣٨]) ليالي سطيح ، ص٤٠.

تاريخ مصر السياسي ، والاجتماعي ، مؤدياً دوراً مهماً في توجيه الناس نحو طلب العلم والالتزام ، والحفاظ على الهوية ، والتطوير والتغيير ، ومقاومة الظلم والاحتلال ، ومحاربة الفساد المجتمعي ، فكانت المقامة المصرية تجربة رائقة تحمل روحاً إنسانية ، وفكرة طريفة ، تعلن رؤية كاتبها ، وثقافته ، وموقفه السياسي ، وتدعو إلى إقامة دولة حقيقية يعمرها نور العلم ، وفضائل الأخلاق ، وقوة العدل ، فاستطاعت أن تحمل بين جنباتها – انتقادات ، وقضايا ، وإشكالات – مما لا يستطيع البوح به فن آخر أو ينوء بحمله.

وبذلك يكون مضمون المقامة المصرية في العصر الحديث ابتعد عن موضوع الكدية ، والسخرية ، والاحتيال ، والفكاهة ، وكان المعنى هو الأساس الذي تعتمد عليه بنية المقامة ؛ لأن المعنى والجوهر هما الغاية التي قصدها كتّاب المقامة ، وكانت الفكرة العامة التي سيطرت على جميع المقامات النقد والتوجيه والإرشاد ، واتخذوا من اللغة الأنيقة السهلة والأسلوب القصصي ، وسيلة لتحقيقها ، ومن هنا تختلف خصائص المقامة المصرية في العصر الحديث عن المقامة في العصر العباسي التي كان اهتمامها الأول باللفظ والشكل الخارجي ، كما أشار د. شوقي ضيف " إن الحادثة التي تحدث للبطل لا أهمية لها ، إذ ليست هي الغاية ، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذي تُعرض به الحادثة ، ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى في المقامة ، فالمعنى ليس شيئا مذكوراً ، إنما هو خيط ضئيل تنشر عليه الغاية التعليمية، ولعل ذلك ما جعل المقامة منذ ابتكرها بديع الزمان تنحو نحو بلاغة اللفظ وحب اللغة لذاتها فالجوهر فيها ليس أساساً ، وإنما الأساس العرض الخارجي والحلية اللفظية ".([٣٩])

المبحث الثاني

خصائص الأسلوب

زخرت المقامة المصرية في العصر الحديث بالعديد من العناصر الفنية التي شكلت بنيتها النصية، فتجلت في صورة فنية، وتشكيل لغوي بديع يجمع الأمثال والحكم والقصص في نوادر التراكيب ومحاسن الأساليب، ويحمل في جوفه مضمون المقامة، وأهدافها، لينبه على قضايا المجتمع ويعالجها؛ إذ " لابد أن يكون المعنى هو الموضوع الأخص للدراسة؛ لأن كل دراسة لغوية لابد أن يكون موضوعها الأول والأخير هو المعنى وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة وهو صلة المبنى بالمعنى ".(٤٠)

---

[٣٩]) المقامة، شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٣م، ص ٩.

٤٠) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م، ص ٩.

ولذلك فإن دراسة الخصائص الأسلوبية لها أهميتها؛ إذ " يؤدي فحص الثروة اللفظية كما تظهر في النصوص إلى استبانة واحدٍ من أهم الملامح المميزة للأسلوب، فما المفردات إلا الخلايا الحية التي يتحكم المنشئ في تخليقها وتنشيط تفاعلاتها على نحو يتحقق به للنص كينونته المتميزة في سياق النصوص وللمنشئ تفرده بين المنشئين " (٤١)

وينبغي ألا نغفل دور المتلقي في اكتشاف طاقة النص الدلالية؛ " فالنص الأدبي يظل ناقصا عديم الفائدة، ما لم يحظ بمتلقٍ واعٍ يعيد التجربة ويتمثل أبعادها ".(٤٢)

أولًا: عتبات المقامات.

أول الخصائص الأسلوبية التي ينبغي الوقوف عندها هي عتبات المقامات، أي مجموع العناصر المحيطة بالنص، والتي تحفز المتن كالعناوين والإهداءات، والمقدمات، والخاتمات، والفهارس، والحواشي، وبيانات النشر التي توجد على صفحة الغلاف الأمامي والخلفي، وكل ما يمهد للدخول إلى النص. (٤٣)

ومن النقاد من قدّم تعريفًا مفصلًا للعتبات قائلًا: إنها " تلك البنية النصية التي تشترك وبنية نصية أصلية في مقام وسياق معينين، وتجاورها محافظة على بنيتها كاملة ومستقلة، وهذه البنية النصية قد تكون شعراً أو نثراً، وقد تنتمي إلى خطابات عديدة، كما أنها قد تأتي هامشاً أو تعليقًا على مقطع سردي أو حوار وما شابه". (٤٤)

وقيل إنها نصوص تعقد صلات ودٍّ مع النص، فتعلن سره وتكشف عنه لأنها المدخل الطبيعي إليه، ومرشدة القارئ إلى طريق التواصل معه؛ إذ تمكنه من الانفتاح على تركيب النص وأبعاده الدلالية...كما أنها تحاول كشف استراتيجية الكتابة. (٤٥)

وقد قسم جيرار جينيت العتبات إلى قسمين:

الأول: النص المحيط، وهو ما يطلق عليه النص الموازي الداخلي وهو عبارة عن ملحقات نصية تتصل بالنص مباشرة، ويندرج تحته نوعان: النص المحيط النشري، ويضم تحته الغلاف، الجلادة، كلمة الناشر، السلسلة ...، والنص المحيط التأليفي: ويضم تحته اسم الكتاب، العنوان،

٤١) في النص الأدبي ـ دراسة أسلوبية إحصائية، سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢ م، ص ٨٩.

٤٢) المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، خليل عودة، مجلة النجاح للأبحاث، مجلد ٢، عدد ٨، ١٩٩٤م، ص ١٠٩.

٤٣) يراجع: مدخل إلى عتبات النص ـ دراسة في مقدمات النقد العربي القديم ـ عبد الرازق بلال، تقديم إدريس نقوري، إفريقيا الشرق، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٢١.

٤٤) انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠١ م، ص ٩٩.

٤٥) يراجع: تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٥٦.

العنوان الفرعي، العناوين الداخلية، الاستهلال، التصدير، التمهيد. وهو موضوع هذا الجزء من البحث، وسوف تتناول الدراسة العتبات التي توافرت في المقامات دون غيرها، كالعنوان، والإهداء، والمقدمة، والعناوين الداخلية، والخواتيم.

الثاني : النص الفوقي، وهو ما يطلق عليه النص الموازي الخارجي ، أو النص الموازي الرديف، أو النص العمومي المصاحب، أو الخطابات الموجودة خارج النص/ الكتاب فتكون ملحقة به ودائرة في فلكه وهو" كل نص من غير النوع الأول مما يكون بينه وبين الكتاب بعد فضائي وفي أحيان كثيرة زماني أيضا، ويحمل صبغة إعلامية" (٤٦)، ويندرج تحته نوعان: النص الفوقي النشري: ويضم تحته الإشهار، قائمة المنشورات، الملحق الصحفي لدار النشر، والنص الفوقي التأليفي : وهو نوعان : (النص الفوقي العام) ويتمثل في اللقاءات الصحفية ، والإذاعية والتلفزيونية التي تقام مع الكاتب ، وكذلك المناقشات والندوات التي تعقد حول أعماله ، إلى جانب التعليقات الذاتية التي تكون من طرف الكاتب نفسه حول كتبه ، و(النص الفوقي الخاص) ويضم تحته المراسلات ، والمذكرات الحميمية ، ... (٤٧)

وقد أشار ابن الأثير إلى أهمية بدايات الكتابة بقوله: " إنما خُصّت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام؛ فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده توفّرت الدواعي على استماعه ". (٤٨)، كما أكد الجاحظ على أهمية (الاستهلال) بقوله: " إن لابتداء الكلام فتنةً وعُجْبا " (٤٩)، **فالعنوان، والمقدمة، والعناوين الداخلية والخواتيم** من العناصر المهمة التي يتألف منها النص؛ فهي واجهته الإعلامية، وأول لقاء بين القارئ والمبدع، إما أن تثير الدهشة وتحرك شهية القارئ، وتستنهض فضوله فتدفعه لسبر أغوار النص، فتتحقق الشهرة له، أو تصيب القارئ بالإحباط والسأم؛ فتدفعه إلى الإعراض عن النص وعدم الاهتمام بمضمونه، وتجلب الكساد له؛ فيصبح الكاتب ضحية لعنوان لم يحسن اختياره.

إذًا، العناوين هي علامات سيميائية تقوم بوظيفة الاحتواء لمدلول النص، والعنونة هي أولى المراحل التي يقف لديها الباحث السيميائي لتأملها واستنطاقها قصد اكتشاف بنيتها، وتراكيبها، ومنطوقاتها الدلالية، ومقاصدها التداولية. (٥٠)

---

٤٦) شعرية النص الموازي (عتبات النص الأدبي) جميل حمداوي، ط ٢، ٢٠١٩ م، ص ١٥.

٤٧) يراجع: عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، عبد الحق بلعابد، تقديم سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ٤٩.

٤٨) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩٠ م، ج ٢ , ص ٢٢٤.

٤٩) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٨٨.

٥٠) يراجع: شعرية النص الموازي (عتبات النص الأدبي) جميل حمداوي، ط ٢، ٢٠١٩ م، ص ٦٢.

وحينما نطالع **عناوين المقامات** نجد ارتباطا قوياً ومباشراً بالمضمون الفكري للمقامة ؛ فالشيخ حسن العطار وسم مقامته بعنوان " في الفرنسيس " ليعلم المتلقي أهمية الموضوع وارتباطه بمستقبله ، فيُقبل مستمعاً منصتاً؛ فكلمة " الفرنسيس" تستحضر الحملة الفرنسية على مصر بما لها وما عليها، وما صاحبها من أحداث غيّرت وجه الدولة المصرية ، فهذا الدال من العنوان جاء مُعَرّفًا ليحيل إلى هؤلاء القوم الذين قاموا باحتلال مصر بهذه الحملة التي قادها نابليون بونابرت، فهويتهم محددة، وصفاتهم واضحة ، وأفعالهم معروفة ، أما الدال الأول من العنوان وهو حرف الجر "في" أفاد معنى المرادفة للحرف "عن" فالمعنى لا تناسبه الظرفية الزمانية أو المكانية ؛ إذ المقصود أن الكلام التالي عن الفرنسيس ، فالعنوان جاء مبنياً على الحذف، تاركًا فضاءً دلاليا للمتلقي لاستنتاج ما يكتنزه سياق المقامة من رؤى فكرية وسياسية واجتماعية اعتماداً على وعيه السياسي ومعايشته لواقع الأحداث، والعنوان بهذا التركيب والدلالة يمثل همسة في أذن كل مصري ذي وعي وفكر أن يتدبر كلامه عن الفرنسيس ، ويغتنم الخير ولو كان من علماء الأعداء، وأن يتخلى عن انعزاله الثقافي فيقبل على التحاور والتثاقف والاطلاع على علوم الآخرين للإفادة منها.

كذلك كان العنوان الذي وضعه عبد الله فكري (المقامة الفكرية في المملكة الباطنية) وثيق الصلة بمضمون المقامة ، حاملًا طاقة دلالية رامزة؛ فالدال الأول (المقامة) يشير إلى جنس النص، ثم الوصف بـــ (الفكرية) يحتمل معنيين: إما نسبة المقامة إلى كاتبها (عبد الله فكري) فسميت باسمه، وإما نسبة المقامة إلى معنى التفكر والتدبر إشارة إلى عمق موضوعها الذي يحتاج إلى إعمال العقل والتأمل، ومما رجح الاحتمال الثاني الجزء الثاني من العنوان (في المملكة الباطنية)؛ فحرف الجر (في) يفيد معنى الظرفية المكانية، و (المملكة) تشير إلى الدولة التي يحكمها ملك ، و(الباطنية) وصف يحمل معاني الخفاء والاحتجاب والأسرار الكونية التي تستتر خلف بواطن الأمور ، والبطن من كل شيء: جوفه ، والباطن من أسماء الله جل جلاله ، ومعناه: " المحتجب عن أبصار الخلق الذي لا يستولي عليه توهم الكيفية ، وقد يكون معنى الظهور والبطون: احتجابه عن أبصار الناظرين وتجلّيه لبصائر المتفكرين، ويكون معناه: العالم بما ظهر من الأمور، والمطّلع على ما بطن من الغيوب" (٥١) فمضمون المقامة يركز على تصوير هذه المملكة الباطنية للكشف عن أسرارها، واستجلاء كنهها وهذا لا يتحقق إلا بالفكر والتأمل، واتضح أن هذه المملكة الباطنية التي جاءت معرفة لتكون محددة المعالم

٥١) زاد المسير في علم التفسير، الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص ١٣٩٦.

والهوية، هي مكمن الأسرار الإلهية ، هي مملكة النفس الإنسانية التي يحكمها ويدبر شئونها، العقل الحاكم، ولعل هذه المملكة التي قصدها عبد الله فكري هي وطنه الذي أراد أن يتناول سياساته وشئونه الداخلية وقراراته دون التعرض للمساءلة فرمز له بهذه المملكة ليعبر عن رؤاه السياسية ، وينتقد من يريد بأريحية وحرية ، فجعل جسم الإنسان من الباطن هو المملكة، وجعل العقل هو الملك، والبصيرة وزيره، والحواس الخمس سفراءه، وهكذا اتصلت الدلالات المعجمية للعنوان بمضمون المقامة الذي صوّر نظام الحكم في المملكة الباطنية، وعبّر عن بعض الرؤى الذاتية التي تبناها المؤلف ، وقدّمها بلسان الخيال.

أما عناوين المقامات الأخرى فكانت متصلة بالشخصيات الرئيسة أو شخصية البطل في المقامة؛ فـ (علم الدين) لعلي مبارك هو اسم شخصية البطل، و(حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن) للمويلحي، هو اسم الراوي وبطل المقامة ، وقد أشار بوضوح أن هذه الشخصية التي نسب إليها الحديث هي قناع اتخذه من شخصية بطل المقامة (عيسى بن هشام) ليبث أراءه ونقداته ، وكذلك (ليالي سطيح) لحافظ إبراهيم ، فـ (سطيح) هو اسم الحكيم الذي جعله حافظ بطل مقاماته وقناعاً يتخفى وراءه ليتكلم بلسانه ناصحاً وموجهاً ، وجاءت البنية التركيبية للعناوين بالحذف لتختزل المعاني التي يمكن استنتاجها من سياق المقامة ، وتدفع المتلقي للقراءة ليعرف من يكون علم الدين؟، ومن هو عيسى بن هشام ، وعن أي موضوع يدور حديثه، وفي أي عصر هذه الفترة من الزمن؟ ومن سطيح، وما لياليه، وأين قضاها؟ ومع من؟

أما عتبة **الإهداء** التي تنشط الحركة التواصلية والتفاعلية بين المؤلف وجمهوره ، وتعبر عن صدق مشاعر الاحترام والتقدير من المؤلف تجاه المهدى إليه، والتي تعد تقليداً ثقافياً وفنياً يدخل المؤلف بوساطته مع المتلقي في علاقة وجدانية قوامها التواصل البناء والهادف، سواء أكان سياسياً أم اجتماعياً أم ثقافياً أم فنياً أم أدبياً ([٥٢])، فكانت مفقودة في جميع المقامات باستثناء (حديث عيسى بن هشام)، الذي اشتمل على إهداء جمع بين صفتي– العمومية والخصوصية– فقد توجه المويلحي بإهداء كتابه إلى عموم القرّاء من الأدباء والحكماء والعلماء واللغويين والشعراء، ثم توجه إلى أشخاص مقربين منه ، لهم منزلة خاصة في نفسه وتربطه بهم علاقة شخصية كوالده ، وأساتذته الذين تأدّب بأدبهم، فقال:" **ألِفَ المؤلفون والكتّاب أن يبدأوا كتبهم عند نشرها بإهدائها إلى بعض ذوي الشأن والفضل . والضعيف العاجز يهدي هذا الكتاب إلى كل من يقرؤه: من أديبٍ يجد فيه طرفًا من الأدب، وحكيمٍ يرى فيه لمحة من الحكمة، وعالمٍ يبصر فيه شذرة من العلم، ولغوي يصادف فيه أثرًا من الفصاحة، وشاعر يشعر فيه**

٥٢) يراجع: شعرية الإهداء، جميل حمداوي، ط ١ , ٢٠١٦ م، ص ١٠.

بمثل طيف الخيال من لطف الخيال. وأهديه إلى أرواح المرحومين: الأديب الوالد، والحكيم جمال الدين، والعالم محمد عبده، واللغوي الشنقيطي، والشاعر البارودي، أولئك الذين أنعم الله عليهم، وأولئك الذين تأدبت بأدبهم وأخذت بهديهم".

فهذا الإهداء من الإهداءات العامة المطبوعة، أي إهداء العمل وليس إهداء نسخة، قصد به المويلحي الإشارة إلى ما يتفرد به كتابه من أدب، وحكمة، وعلم، وفصاحة، وخيال، ليدفع جمهور القراء على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم وميولهم، إلى الإقبال عليه؛ لأنه جمع بين معارف مختلفة تجعله بغية القاصدين لعلوم اللغة وأدابها، والحكمة وأسرارها، والخيال ولطائفه، ثم خصص أشخاصاً أهداهم الكتاب عرفاناً وتقديراً لهم؛ فهم مؤدبوه ومعلموه الذين نهل من فيض علمهم وأدبهم.

أما **المقدمة** فلا تقل عن العنوان أهمية؛ إذ تقوم بوظيفة مركزية، هي ضمان القراءة الجيدة للنص ... فالكاتب من خلال استهلاله/ تقديمه يريد أن يفسر كيف يمكننا قراءة كتابه، وبسؤال الكيفية نستطيع فهم الكتاب وعنوانه والكشف عن معناه وجمهوره المختار وسياقاته المحتملة.(٥٣)

وبالنظر في **مقدمات** المقامات – موضوع الدراسة – نجد أن (في الفرنسيس، وليالي سطيح) خلت من التقديم، وجاءت مقدمة المقامة الفكرية موجزة تشير إلى أصلها الذي ينتمي إلى كتاب لطيف الأسلوب باللغة التركية يعرف بالمملكة الباطنية، عثر عليه عبد الله فكري في بعض أسفاره إلى القسطنطينية، ثم نقله إلى اللغة العربية بصورة مقامة، ووتصرّف فيه بالزيادة والتغيير.

أما مقدمة مقامات (علم الدين) و (حديث عيسى بن هشام) فجاءت واصفة لما اشتملت عليه المقامات ، وشارحة للأهداف التي من أجلها أنشئت ؛ فعلي مبارك فصّل القول في أسباب الإنشاء التي تدور حول خدمة الوطن ورد الجميل إليه اعترافاً بفضله ، بوساطة تعليم الناشئة من أبنائه حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يداً واحدة في نفعه وخدمته ، فشرع في تأليف هذا الكتاب الذي وصفه بكونه " **اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية وأسرار الخليقة وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر، وما تقلب نوع الإنسان فيه من الأطوار والأدوار في الزمن الغابر وما هو عليه في الوقت الحاضر، وما طرأ عليه من تقدم وتقهقر ، وصفاء وتكدر،**

٥٣) يراجع: عتبات جيرار جينيت، ص ١١٨، ١٢١.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

وراحة وهناء ، وبؤس وعناء ، إلى غير ذلك من الشئون بتقلب الدهور وتصرف الأمور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين أحواله وعاداته في الأوقات المتفاوتة والأنحاء المتباينة ، ليطلع مطالعه على ما يشحذ خاطره وينبه قريحته ، ويستنهض فكرته ، ويدرجه لإعمال عقله وإمعان نظره ، واستعمال بصر بصيرته في نقد الأمور وسبرها وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر " . (٥٤)

وكذلك فعل المويلحي في مقدمة حديثه؛ إذ جعلها كاشفة لحقيقة الموضوع وأهدافه التي قصد تحقيقها، فقال:" **فهذا الحديث – حديث عيسى بن هشام – وإن كان في نفسه موضوعاً على نسق التخييل والتصوير، فهو حقيقة متبرجة في ثوب خيال، لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم، وأن نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها، والفضائل التي يجب التزامها**". فهذه المقدمة تلخص جوهر الموضوع فهو حقيقة برزت في ثوب الخيال لئلا يظن القارئ أن هذه قصة خيالية للمتعة فقط، وأكد المويلحي على هدفه في إصلاح المجتمع بمختلف طبقاته، والإشارة إلى النقائص التي يجب تجنبها، والفضائل التي يجب اتباعها.

ومن العتبات المحيطة (**العناوين الداخلية**) التي ترتبط بالمتن السردي ارتباطًا مباشراً ، وتشكل بؤراً دلالية تضيء النص الرئيس وتهدي إلى دلالاته العميقة ، وتعمل على إرشاد القارئ وتوجيهه ، ولم توجد هذه العناوين الداخلية بوظيفتها الموضحة سوى في (حديث عيسى بن هشام) و (علم الدين) ، وقد ارتبطت بالمتن السردي ؛ فمثلا المقامة الأولى من (علم الدين) جاءت بعنوان (السفر) وهي تحكي عن سفر علم الدين إلى القاهرة لاستكمال دراسته في الجامع الأزهر تلبية لرغبة والده الذي أراده أن يلحق برتبة أكابر العلماء ، فأعد له ما يلزم وأوصاه بالطاعة والامتثال لمعلميه ، وأن يلازم أهل الصلاح والخير ، وختم وصيته لولده بتعليمه وظائف طالب العلم وما يلزمه من الأداب ، ثم كانت مقامة أخرى بعنوان (الزواج) تحكي عن زواج علم الدين ، وفلسفة اختيار الزوجة ، ومقامة بعنوان (السائح الإنجليزي) تحكي عن قدوم رجل إلى القاهرة هو من مشاهير الانجليز المشتغلين في بلادهم بتعلم اللسان العربي ، وعنده نسخة من كتاب لسان العرب يريد طبعه للتجارة فيه وتسهيل تناوله لطالبيه وقد حضر إلى مصر بقصد تصحيح النسخة التي معه ويلتمس أستاذاً من العلماء المتبحرين في تصحيح الكتب .

٥٤) علم الدين، ص ٨.

وكذلك جاءت العناوين الداخلية في (حديث عيسى بن هشام) تعبر عن المتن السردي، وتتصل به اتصالًا مباشرًا؛ فعندما تشاجر الباشا مع المكاري، وأخذ المكاري يصرخ ويستغيث برجال الشرطة قائلا (يا بوليس)، جعل المويلحي عنوان المقامة (البوليس) ، ثم لما أحيل إلى النيابة العامة للتحقيق جعل عنوان المقامة (النيابة) وهكذا (المحكمة الأهلية) و(المحامي الأهلي)، وجميع العناوين الداخلية للمقامات تعالقت فيما بينها لتشي بالأحداث، وانتشرت داخل المتن السردي لتجعل المقامات جميعها وحدة متماسكة تعبر عن الفكرة الرئيسة.

وأخيرًا **خواتيم المقامات** ، فقد كان بعضها خالٍ من الجدة والطرافة، يُفاجئ المتلقي تارة بانتهاء الأحداث والحوار دون تمهيد، كما فعل علي مبارك في " علم الدين " عندما أنهى مسامراته بالحديث عن الأشجار والزهور وأنواع النباتات المتنوعة التي في بستان الخواجة ، ولم يشر إلى انتهاء حوار أو أحداث ، فيظن القارئ أن للحديث بقية ، وكذلك فعل حافظ في " لياليه " ؛ إذ أنهى حديثه مع ابن سطيح حول ضرورة بناء الجامعة ، وضرورة الحفاظ على الخُلق والدين ، والكف عن السهر في المنتديات وأخذ يعدد له ما وراء ذلك من المنافع ؛ كالرجوع إلى المعيشة المنزلية ، واجتياز العقبات التي أقامتها المنتديات والحانات ، واقتصاد المال ، وكانت الفقرة الخاتمة نصها كالآتي:" ومنها اقتصاد المال. وأنت ترى أن هذه الستة الأفدنة تكاد تبلغ ما تخرجه أرض وادي النيل من الخيرات، ولا يغرنك ما ترى في عاصمة الفرنسيس، فإن أهلها من الأكياس الذين يصلون سهر الليل بالنهار لاصطياد الذهب، ولكن من جيب الغريب، ونحن إنما نفعل ذلك ليذهب الغريب بأموالنا، ويسخر من جهّالنا " (٥٥)، هكذا انتهت الليالي السبع بمجموعة وصايا تركز على ما يصلح به المجتمع وينتفع به الناس، ولكن دون تمهيد لإنهاء الحوار.

وتارة أخرى يمهد المؤلف بحوار يشير إلى قالسمع،اء الأحداث كما فعل المويلحي في حديثه؛ إذ ختم رحلته في باريس مع الباشا ، وصديقه ، والحكيم الفرنسي ، مشيرًا إلى إحاطتهم بطرف من حضارة هذه المدينة وأهلها في جميع أحوالها ومختلف طبقاتهم ، واطلاعهم على المدنية الغربية ، إلى أن أدركهم الشتاء فتوارت عنهم الشمس لأيام ، وانسدل على العالم ستر الظلام، وتدفقت السيول والأمطار ، فاحتجبوا في البيوت والحجرات ، يقضون فيها أكثر الأوقات، يقول: " **وأقمنا عاكفين على الحديث والسمر ، بما وعيناه عن هذه المدنية من كل خبر وأثر، وكان الصديق بيننا كعهده يرسل علينا القول إرسالًا، ويذهب في حدة انتقاده يمينًا وشمالًا، ويذكر من أسواء المدنية الغربية ما يهول السمع، ويذرف الدمع، حتى استفز الحكيم للرد عليه وتهوين ما ذهب إليه .**

---

٥٥) ليالي سطيح، ص ٩٠. المراد بستة الأفدنة: حديقة الأزبكية مثابة الملاهي والمراقص.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

(الحكيم) للصديق: لقد أسرفت أيها الصديق في القول، وغاليت في الوصف ، وإن كان في بعضه الجانب الصحيح ، والحق الصريح ، ولكن لهذه المدنية الكثير من المحاسن ، كما أن لها الكثير من المساوئ ، فلا تغمطوها حقها ، ولا تبخسوها قدرها ، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ، ويلتئم بكم ، واتركوا ما يضركم ، وينافي طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعتها ، وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوة تصُدُ عنكم أذى الطامعين ، وشره المستعمرين ، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق ، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم ، فأنتم بها في غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ، وتمتعوا في رخاء بلادكم ، وسعة أرزاقكم ، واحمدوا الله على ما آتاكم .

قال عيسى بن هشام: ولم يبق لنا بد في هذه الحال، من السفر والانتقال، فاستخرنا الله في العودة إلى ديارنا، والأوبة إلى أوطاننا، والحمد لله باطنا وظاهراً، أولًا وآخراً. وإلى هنا انتهى الحديث." (٥٦)

وكما فعل عبد الله فكري ؛ إذ انتهت المقامة بغلبة البصيرة على الغفلة ، وزوال الاختلال والفساد ، وعودة العقل السلطان إلى ما كان عليه قبل سيطرة الغفلة عليه ، ثم ختم بفقرة اشتملت على طُرفة تتضمن حكمة وهي عدم الاغترار والخيلاء ، أو التسرع في الأفعال ، وإلا سقط الإنسان في هوة الخجل والندم ، قال الخيال :" **فلما أبصرت ما صار من هذا الظفر والانتصار تخيلت أن الظفر المذكور إنما هو ثمرات سعيي المشكور ، فداخلني ما لم أحصه من السرور ، ومثله من الخيلاء والغرور ، فتركت الدليل ظهريا ، وصيرنه نسيا منسيا ، وصرت أتمشى وحدي مليا حتى عن لي القعود على تخت الاستقامة العقلية فمشيت إليه وصعدت مع كمال التمكين والوقار فاستويت عليه ، فضحكت الصحة عليّ وأشارت من بعيد إليّ أن أخطأت وأخطأتك الكرامة ، هذا تخت البلاهة لا تخت الاستقامة ، فضحك عليّ من في المجلس مقهقهًا، وقمت عن التخت فوقعت متدهدهًا ، واعتراني من الخجل والحياء بقدر ما كان عندي من الغرور والخيلاء ، وسرت أجر رجليّ والخلق يضحكون عليّ، وتبعتني النفس اللوامة على القدم وصارت تضربني بسياط الندم حتى تبت ورجعت واعتذرت بقدر ما استطعت فعدت من حيث أتيت ، وقد وعيت كل ما رأيت وأردت أن يبقى تبصرة للأنام فحكيت ما رأيته بالتمام".**(٥٧)

٥٦) حديث عيسى بن هشام، ص ٣١٤: ٣١٦.
٥٧) المقامة الفكرية، ص ٣١.

أما خاتمة المقامة العطارية، فكانت غير متوقعة ومفاجئة للقارئ؛ إذ استمر التوجيه للاتصال بالثقافة الغربية والاطلاع على العلوم الحديثة، ثم لما طلب منه علماء الحملة ملازمتهم سوّف في الإجابة، وأضمر على عدم الإنابة.

وهكذا، كانت خواتيم المقامات مباشرة تقريرية خالية من الطرافة، يركز بعضها على تلخيص الهدف المنشود منها، وبعضها الآخر فقد الصلة بالفكرة الرئيسة للمقامة، وكان نهاية طبيعية لآخر حوار بين الراوي والبطل في موضوع قد يبدو بعيداً عن السياق العام للمقامة، وفي هذه السمة تختلف المقامة المصرية عن المقامات الأولى التي كانت تفاجئ القارئ بانجلاء الحيلة والخديعة وكشف الشخص المحتال.

ثانيًا: لغة المقامات وأسلوبها.

لا شك أن الكلمة هي المادة التي يتشكل منها البناء النصي، وتحمل تجربة الأديب وأفكاره وعواطفه للمتلقي، وتكشف عن حركة المعنى داخل النص؛ إذ إن " العمل الإبداعي بعد أن يتم تصور المعنى في الذهن، ينحصر في اكتشاف الألفاظ التي تلائمه ملاءمة جيدة، ومهما كانت طبيعة الموضوع فهو يصبح رهين اللغة ورهين كل إسهام في استثمار الفكر بالكلمات ". (٥٨)

، وقد استخدم مؤلفو المقامات المصرية في العصر الحديث اللغة العامة عند المثقفين؛ فجاءت **ألفاظهم** سهلة، مفهومة، أنيقة، بعيدة عن الغرابة والتعقيد، توافق قواعد النحو والصرف، تميل إلى لغة الحضر، يدل على ذلك عدم وجود شروح لهذه المقامات لسهولة ألفاظها وألفتها، وصدق تعبيرها عن المجتمع، وترتب على ذلك قرب الدلالات ووضوح المعاني واستقرارها في الأذهان، وقوة تأثيرها على المجتمع.

تتجلى اللغة السهلة المألوفة والبعيدة عن الغرابة في مقامات علم الدين ؛ إذ جاءت لغته أقرب ما يكون إلى أفهام العوام ، ولعل السبب في خلوها من الغرابة أن الهدف الرئيس لها هو التعليم بما يلزمه من وضوح المعنى وألفة الألفاظ ، ومنها على سبيل المثال مقامة "العادات" التي تصف أحوال الناس في باريس وعاداتهم في ملبسهم ومسكنهم ، ورغبة الشيخ علم الدين في الاطلاع على أصل المدينة القديم ثم الجديد ، وعلى أطرافها وضواحيها ، ومقارنة أحوال الزمن الماضي بأحوال الزمن الحالي ؛ ليرى كيف تتغير أحوال البلاد بتغير أهلها ، فخرج مصطحباً ابنه برهان الدين والرجل الإنجليزي، " **وابتدأوا من المينا (أي المرسى) فداروا حولها ورأوا بها**

٥٨) الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ترجمة: مبارك حنون، ومحمد الوالي، ومحمد أوراغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط ١ , ١٩٩٦م، ص ١٦١.

مخازن البضاعة الواردة والصادرة ومحلات الكمرك ونحو ذلك فتعجب الشيخ من كثرة السفن وتنوع أشكالها وأجناس ملاحيها وملابسهم وألوانها ومن كثرة البضاعة الموجودة في المينا المذكورة منها الوارد للمدينة والصادر إلى جهات مختلفة ، ووجد المرور بالطرق عسراً جداً لكثرة العربات ... وظهر للشيخ وولده عظم قول الأمة الفرنساوية واتساع ثروتها ومعرفتها بطريق الأسباب المعاشية ، ولكون النفس مجبولة على حب الوطن تذكر الشيخ مصر وأهلها وثغر الإسكندرية وحالها فوجد بينهما وبين مرسيليا فرقًا كبيراً إن ذلك ليس إلا من تفاوت أحوال التقدم ، ونظر إلى المارين بالطرق وقارن أحوالهم بما يعلم من أحوال أهل بلاده فوجد أن لا شبه بينهما إلا في الصورة فقط لأنه رأى الكل يسعى مع الاجتهاد والغيرة والنشاط في طلب الرزق وعليهم أثار اليسار والثروة والنعمة ، ومما زاده تعجباً ما رآه من اجتماع خلق كثير لا يسمع لهم صوتًا ولفظًا كما هي عادة المصريين وأهل المشرق ، بل كل مشغول بأمر نفسه ، سائر في طريقه محترز من إضرار غيره أو تغيير خاطره ، ومع تنوع الأشغال والأعمال وكثرة العمال فلا ضرب ولا سب فكأنهم اجتمعوا للصلاة أو لسماع منشور من أحد الولاة فلا يسمع بينهم إلا الألفاظ لابد منها بين المتعاملين من غير صياح ولا صراخ حتى قال الشيخ ليت هذا الحال بأزقة القاهرة والإسكندرية ونحوهما من مدن الممالك الشرقية " (٥٩)

كذلك كانت لغة المقامات في عمومها سهلة عذبة لا تحتاج إلى شرح ، بعيدة عن العامية والسوقية ، كما اتضح في النماذج السابقة في كل موضع من مواضع البحث ، ولكن لوحظ استخدام بعض الألفاظ الغريبة النادرة الاستعمال لدى المعاصرين ، فاحتاجت تفسيراً لمعانيها ؛ ككلمة (الصِّلال) جمع صِل ، التي يُراد بها (الحيات) ، وكلمة (الفدم) المقصود بها (الغبي) ، وكلمة (صفعان القوم) التي تطلق على الرجل الذي يصفع على قفاه ويتخذ سخرية في الحفلات لإضحاك الجمهور ، وكلمة (أفجرنا) أي دخلنا في الفجر ، وكلمة (سراة اليوم) أي معظمه ، وكلمة (الارتكاس) التي تعني الانتكاس (٦٠) ، وكلمة (الفِدام) التي يقصد بها الخرقة على فم الإبريق ، وكلمة (الإبلال) بمعنى الشفاء ، وكلمة (الأسفاط) جمع سفط وهو الوعاء ، و (الأخدريّ) وهو حمار الوحش ، وكلمة (السجوف) جمع السجف وهو الستر . (٦١)

وقد ظهر التأنق في اختيار الألفاظ، وانتقائها بدقة وعناية تُكسبها صفة الشعرية أحياناً، لتعبر عن المعنى المراد، منها ما قيل على لسان سطيح في وصف الشاعر: " **شاعر عربي، وأديب**

---

٥٩) علم الدين، ٢/ ٤٤٦، ٤٤٧.
٦٠) ليالي سطيح، ص ٥٤، ٥٧، ٧٢، ٧٦، ٧٨.
٦١) حديث عيسى بن هشام، ص ١١٨، ١٢٤، ١٥٦، ١٦١، ١٩٧.

سريّ، طيّب الله أنفاسه، وازدهى السبق أفراسه، نهاز أذنبة الكلام، خلاب أفئدة الأنام، قريب القلب واللسان، صديق الخاطر والبيان، زوته عواثر الجدود، عن مظاهر الوجود، فزكا شعره ولم ينبه ذكره، ولو أنصفه زمانه، لما خمل مكانه، أو لمحته القدرة لما حرم الشهرة". ([٦٢])

نلاحظ أن هذا الوصف نسجه حافظ بخيوط الشعر، ولغته المكثفة الموحية بلسان سطيح، فانتقى كلمات متخمة بدلالات المدح والثناء؛ فهو شاعر وأديب طيّب الله أنفاسه كناية عن طيب كل ما يخرج من فمه وكل ما ينطق به من أدب وشعر وحكمة، وقد حُقّ له الزهو والافتخار لتقدمه وتفوقه على أقرانه ممن ينافسونه، فيسبقهم، وهو بليغ يفيض معينه بالكلام البليغ، وهو جذاب يستولي على قلوب الناس، وصادق في التعبير عما في قلبه ، يملك القدرة على البيان بوضوح ودقة فيحسن التواصل مع الآخرين ويعبر عن مشاعرهم ويشاركهم حياتهم ، ومع هذه السمات الطيبة التي تميزه ، كان حظه العاثر سببا في أفول نجمه فانزوى بعيدا عن الظهور ، وزكا شعره ولكن لم يعلُ ذكره بين الناس ، ولو أنصفه زمانه ، أو التفت النقاد وأصحاب الصحف إلى قيمة شعره بمعزل عن ذات قائله ، لطارت شهرته في الآفاق .

تجاوز حافظ حدود المعنى المتعارف عليه في أصل اللغة للكلمة إلى معنى آخر ، وأنشأ علاقات جديدة بين الكلمات فأنتج دلالات جديدة تباغت المتلقي بمخالفتها للمألوف ، فاتخذ من الأسلوب الاستعاري وسيلةً لذلك ؛ فأسند الازدهاء إلى السبق ، وشخّص السبق وهو معنوي فحمله على العُجب والزهو والافتخار ؛ ليثبت تفوق الشاعر على منافسيه ، وأسند الكلام إلى الذنوب الملأى بالماء فجعل شعره كالماء السائغ العذب الذي يُغترف من البئر سائغًا للشاربين ، وأسند صفة القرب إلى القلب واللسان ليؤكد صدق مقاله في التعبير عما في قلبه ، وأسند الانزواء إلى الحظ العاثر ليحصر أسباب الانزواء فيه وحده ، وأسند عدم الإنصاف إلى الزمان فعمم السبب ، والخمول إلى المكان فنزّهه عن هذه الصفة ، واللمْح إلى القدرة إشارة إلى براعته ووضوح موهبته بمجرد لمح البصر .

وكانت هذه العبارات الأنيقة، والبيان الرقيق ، والجمل القصيرة المسجوعة غالبًا، واستخدام المحسنات البديعية، الأساس الذي تكونت منه بنية المقامة تارة ، كما في مقامات (في الفرنسيس، والمقامة الفكرية ، وحديث عيسى بن هشام)، يقول عبد الله فكري في المملكة الباطنية:" **فلما سرت غير بعيد في طلب هذا الملك السعيد ، رأيت بعض الظرفاء وظننته من العرفاء ، فتقدّم إليّ وسلم عليّ ، وأشار إلى محل سريّ يعرف بالقلب الصنوبري ، وقال إياك أن تتعداه إن كنت ممن يطلب**

[٦٢]) ليالي سطيح، ص ٣٤. نهاز أذنبة الكلام: الأذنبة جمع ذنوب وهو الدلو، ونهز الدلو: فتح الماء به من البئر، والمعنى أنه ممتلئ من معين الكلام البليغ.

هداه ، فنظرت فإذا جمع يفوق الحد ويفوت مراتب العد من خواص وعوام في احتشاد وازدحام، وخلق إليه يهرعون ولديه يجتمعون ، وعنه يصدرون ويعقبهم آخرون، لا ينقطع الوارد والصادر، ولا يعرف الأول ولا الآخر " (٦٣) فالجمل جاءت مسجوعة تكاد تتوازن ألفاظها عدداً ووزناً ،فحققت التماثل الصوتي الذي أضفى عليها ظلالا موسيقية عذبة ، وقد حافظ المويلحي على هذه السمة ، وأظهر مقدرة لغوية تجلت في حسن الصياغة ، والتأثر بلغة القرآن الكريم ، والشعر العربي ، يقول في وصف قصر في باريس :" **وسرنا في أنحاء الغرف ، نتأمل التحف والطرف ، ومن أبدع ما اجتلاه النظر ، بين تلك الدرر والغرر ، معرض التماثيل والصور ، فكم هناك من صور براها الإتقان والأحكام ، تمثل للعقول والأفهام ما لا يمثله تأليف الكلام ، وتشخّص لك حوادث التاريخ ومناظره ، كأنك كنت حاضره وناظره ، ويوضح لك قلم الرسم والتصوير ، ما يعجز عنه قلم الخط والتحرير ، من مكنون الأهواء والأشجان ، بلفظ مبين من النقوش والألوان : أراكَ المنى فتمنيتها *** وصاغ لك الطيف حتى انبرى** " (٦٤)

كما كانت الجملة اليسيرة الخالية من المجاز والسجع أساس بنية المقامة تارة أخرى ، كما في مقامات (علم الدين ، وليالي سطيح) ، يقول علي مبارك :" **ثم قال الرجل للشيخ أيها الأستاذ إن طبعنا يميل كل الميل لمعرفة أخبار بلاد المشرق ، وقلوبنا مجبولة على حب أهلها لاسيما المصريين فإن جميع العلوم النافعة في بلادنا منقولة لنا منها بواسطة الرومانيين وغيرهم ، والتقدم الذي تفتخر به بلادنا منشأه مصر فلها علينا الفضل بل على جميع سكان الكرة ، فكل ما نحن فيه من التقدم والثروة سببه المصريون فيا لهم من قوم ادخروا ذخائر انتفع بها بعدهم الأواخر فإنهم قد وضعوا أساسات انبنى عليها لمن بعدهم هذه التقدمات وهذه العلوم الموجودة الآن هم المؤسسون لها** " .(٦٥)

وجاءت **أساليبهم** متينة مصبوغة بفنون البيان والبديع التي تؤسر بجمالها العقول ، وتنفذ بفصاحتها وخلابتها من الأسماع إلى القلوب ، " فجرس الألفاظ له وقع إيجابي كثيرا ما يعين الكاتب أو الشاعر على استنفاد إحساسه على أن يسلم ذلك من التكلف والصنعة " (٦٦) ، فاتخذوا من التشبيه والاستعارة ، والسجع والجناس وسيلة لتنميق مقاماتهم دون تكلف أو اضطراب ، بل في خفة وتناسق وانسجام ، فلا يكاد يخلو نص من التشبيه أو الاستعارة أو البديع الوارد عفو الخاطر ، وكان السجع أكثر الأنماط البلاغية استخداماً ، وكانت أكثر الصور البيانية تميل إلى

٦٣) المقامة الفكرية في المملكة الباطنية، ص ١٠.
٦٤) حديث عيسى بن هشام، ص ٢٧٦.
٦٥) علم الدين، ٣ / ٩١٤.
٦٦) أصول النقد الأدبي، طه أبو كريشة، ط١ , الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان , ١٩٩٦, ص ٢٦٦.

المحسوسات ، واستدعاء مظاهر الطبيعة كالأشجار والأنهار والجداول والسماء وربُا الصحراء، يقول عيسى بن هشام :" **ودخلنا معرض الأشجار ، وبستان الأزهار ... هنالك تستبيك ألوان الأزاهر، بما يزري بلمعان الجواهر ، فما الياقوت عندها والزبرجد ، وما الفيروز والزمرد، وما العقيق والجُمان ، وما الدر والمرجان! وكيف يقاس الحجر بالشجر، وتستومى الحصباء اليابسة، بأكمام الأغصان المائسة، وكيف يُقدّم الجامد الثابت على النامي النابت، وأين الحركة من السكون، والمنشور من المدفون، وأين المنثور على ظهر الروضة الزهراء، من الملحود في بطن الغبراء، ولئن انتظمت القلائد بجواهر تلك الفرائد، في لبّات الخرائد، وكان مكانها من الحور، في المعاصم والنحور، لكانت هذه الزهور بين الرئات والصدور ... حتى إذا آن أوان الانصراف، خرجنا من بين هذه الجنة الألفاف، خروج أبينا من دار الخلود والبقاء، إلى دار الهموم والشقاء** "([٦٧])

يصف المويلحي في المقامة السابقة معرض الأشجار ، الذي قام بزيارته مصطحباً الباشا أثناء رحلتهم إلى باريس للنظر في مظاهر الحضارة والمدنية التي وصلت إليها بلاد الغرب ، وهو معرض جُمع فيه أشتات النبات من جميع بقاع العالم ، وجعل المويلحي ألوان الزهر تسلب عقول الناظرين ، وتستبيهم فلا يستطيعون فكاكا من أسرها ، ولا يملكون حرية في إبعاد النظر عن جواهرها التي تشبه الياقوت والزبرجد ، والفيروز والزمرد ، والعقيق والجمان ، والدر والمرجان ؛ فهي جنة ألفافا ، لها على زائريها تأثير ساحر يصل إلى حد السبي على سبيل الاستعارة ، ثم هي تشبه الجواهر الثمينة بل تفوقها جمالا ، ثم يكنّي عن معرض التماثيل والصور الذي كانت زيارته قبل معرض الأشجار ، بالحجر والحصباء اليابسة ، والجامد الساكن ، والملحود في بطن الغبراء ، وذلك في سياق الموازنة بين المعرضين لتفضيل معرض الأشجار على معرض التماثيل ، وجاء المعنى مصوغاً في قالب بديع ، تترابط جمله بالسجع والجناس والتوازي والتكرار ، دون تكلف في الصنعة أو افتعال ، بل غلب عليها طابع العذوبة والسهولة فكان التأثير النغمي على النفس إيجابياً ، وقد أدت دورا فاعلا في تزيين المقامة وإثراء نغمها الموسيقي ، ولعل هذه الزينة اللفظية لمبنى المقامات قصدها المقاميون لتكون صورة عن زخرفة المجتمع واهتمام الناس بالزينة الشكلية على حساب الجوهر والمضمون .

لم يعتمد حافظ إبراهيم في لياليه على المحسنات اللفظية إلا بقدر ضئيل جداً، وكذلك فعل علي مبارك، فابتعدا عن الصورة التقليدية المعروفة التي تميز فن المقامة، واقتربا من القالب الحكائي البسيط الخالي من العقدة، مع ضعف الحبكة القصصية.

نخلص مما سبق إلى أن المقاميين المصريين لم يعارضوا الهمذاني، أو الحريري، ولم يتقيدوا بالقوالب التي وضعاها؛ فلم نجد أثراً للكدية، أو التعقيد اللغوي، أو التكلف في الصنعة

[٦٧]) حديث عيسى بن هشام، ص ٢٨٤.

البديعية، ولا ننفي اهتداءها بالمقامات الهمذانية والحريرية، ولذلك اتسمت المقامة المصرية – لغة وأسلوبًا– بخصائص فنية تناسب العصر والمجتمع، من أهمها:

- **سهولة اللغة وعذوبتها، وبعدها عن الغرابة والتعقيد، والتزامها بقواعد النحو والصرف.**
- **استخدام المحسنات اللفظية عفو الخاطر دون تكلف، مما أضفى عليها ظلالا موسيقية عذبة.**
- **اللجوء إلى الإطناب في سرد الحكاية، وعرض تفصيلات الموضوع بإسهاب.**
- **الالتزام بأسلوب الحكي والسرد، والحوار بين الشخصيات.**

ثالثًا: البنية السردية للمقامة.

لم تنحصر السمات اللغوية للمقامات في العبارات الأنيقة، والأسلوب البديع فقط، وإنما اشتملت على بعض مقومات القصة من شخصيات، وحوار، وأحداث، وزمان، ومكان، وصراع؛ فاستحضرت المقامة بعض عناصر السرد في مضامينها وأشكالها، وقدّمت قصصًا لها شخصيات وأحداث وفضاء، تجذب العقول، وتستميل النفوس؛ لموافقتها السليقة العربية التي تميل إلى سماع الحكايات القصيرة، والأسلوب البليغ الذي يأسر المتلقي، ويحوز اهتمامه، ويجذب انتباهه، وتميزت موضوعاتها بالتنوع الذي أكسبها ثراءً معرفيًا، وبُعدًا عن الملل.

بدأت المقامات باستهلال سردي ، وراوٍ ، باستخدام الأفعال الحكائية المشهورة ، لتعرض الأحداث إما بطريقة السرد التي تتخذ من الفعل الماضي وسيلة لذكر الحكاية ، هذه الصيغة الفعلية التي تشير إلى وقوع حدث في الزمن الماضي تلفت الانتباه وتجذب النفس منذ البداية لمتابعة الأحداث بلهفة واهتمام ، لأن المتلقي حين يسمع مادة الفعل (حدّث أو حُكي) يهيئ نفسه لاستقبال الأحداث التي تُحكى له، ويتوقع الحوار بين الشخصيات ، كما فعل حافظ إبراهيم ، وعلي مبارك : (حدّث أحد أبناء النيل قال ، حُكي أنه كان بقرية من قرى مصر) ، ليحكيا ما يريدان دون أن يتدخلا في الحوار بشكل مباشر، أو بالطريقة الذاتية التي تعتمد على ضمير المتكلم ، كما فعل المويلحي، وعبد الله فكري ، والشيخ حسن العطار (حدثنا عيسى بن هشام قال، حدثنا أبو المقال بن ذاكر عن الخيال بن خاطر، حدثني بعض الإخوة من أهل الخلاعة والنشوة أنه ...) ليسند الحوار والأحداث إلى راويته ويجري على لسانه ما شاء من أرائه ومعتقداته ، ويكشف عن خبايا نفسه، وهو يرقب الأحداث عن كثب في موقف المشاهد المحايد ؛ ليحقق غاية النقد المجتمعي بعد إقناع المتلقي بالمحتوى المعرفي للقصة، ويبلغ الرسالة الرمزية المستترة في طيّات المقامة ، فيجعلها " قادرة على التعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية، دون اصطدام بالسلطة أو المجتمع، فكانت رافضة للظلم ، وثورة على النظم السياسية القاهرة، ولها مقاصد تهذيبية تعليمية،

تهدف إلى نقد المجتمع ، والسخرية من أفعال الناس ، تقدم ذلك كله بقالب قصصي، يمتاز ببساطة اللغة ، والأسلوب الممتع " ([٦٨]) وكان الراوي في المقامات / السارد للقصة هو المؤلف الحقيقي.

وتشكّلت البنية السردية للمقامات المصرية من الصراع بين الشخصيات ، وتطور الأحداث في فضاءات متعددة ، وتوفر عنصر الخيال ،كما رأينا في حديث عيسى بن هشام ، وعلم الدين ، والمقامة الفكرية ؛ فقد جاءت مقاماتهم على أسلوب الرواية ، فقدموا حكايات فيها فكرة وعقدة وحوار وشخصيات ، وتشويق ومتعة للقارئ ، وصوروا حقيقة النفس الإنسانية والواقع المجتمعي بهدف الإصلاح ، وكانت العقدة فيها أقوى من العقدة في (ليالي سطيح) ، و(في الفرنسيس) ؛ فالمقامة عند حافظ إبراهيم ، والعطار كانت أشبه بالحكاية السردية المباشرة الخالية من الحبكة القصصية والتشويق ، بينما نجد الحبكة متفاوتة في المقامات الأخرى ؛ ففي (حديث عيسى بن هشام) ظهرت العقدة قوية من المقامة الأولى في ابتعاث الباشا وتعرضه لأزمات متعددة ومتتالية وكلها سببها التباين بين عصر الباشا وعصر الراوي ، وفي (علم الدين) كانت العقدة قوية في بداية الأحداث عندما سافر علم الدين إلى القاهرة ثم مات والده فتحمل مسئولية أخواته ، وأراد الزواج فتحير في اختيار زوجته ، وضاقت به الحياة لقلة الرزق حتى قرر السفر مع السائح الإنجليزي ، ثم ضعفت في الأحداث التي تلت سفره ؛ إذ كان أكثرها نقاشات علمية ودينية واجتماعية بينه وبين الرجل الإنجليزي، وفي (المقامة الفكرية) شملت العقدة المقامة كلها حتى كان الحل في نهايتها بعودة الملك / العقل إلى صوابه ، وتخليه عن أهوائه ، واستماعه إلى نصيحة وزيره/ البصيرة.

وظهر الإطار السردي في الحوار- بين الراوي وأبطال الحكاية- الذي أظهر – بصدقه وواقعيته – الطبيعة الفطرية لكل شخصية وسماتها النفسية والاجتماعية ، كما في حديث عيسى بن هشام، وعلم الدين، والمقامة الفكرية، وليالي سطيح، وأدى الحوار وظيفة مهمة تبين حرص المؤلف على التواصل مع الآخر وتعليمه، ومناقشته في قضايا مختلفة ، والتعبير عنه تعبيراً مصوراً صادقًا، واستجلاء كنه حقيقة الشخصيات، وكان الحوار في المقامة الفكرية حيًا نابضًا بالحياة يعتمد على التصوير والتشخيص للمعنويات، أما الحوار في مقامة العطار فكان سرداً بدائيا يعتمد على فعل القول (قال وقلت) بين الراوي وأحد الفرنسيين، وفي كل المقامات كان الحوار ماتعًا سلساً واضحًا خاليًا من الغريب.

أما الشخصيات فقد تنوعت بين شخصيات رئيسة، وثانوية ، ارتبطت بالواقع والمجتمع في زمان محدد ومكان محدد ، كانت تصور بذاتها أخلاق الناس وطبائعهم مع اختلاف طبقاتهم في ذلك العصر، باستثناء الشخصيات في المقامة الفكرية فهي أفكار معنوية مجردة تصلح لكل زمان ومكان تسعى إلى الحقيقة وإصلاح المجتمعات ، وتغيير أنظمة الحكم والإدارة في أي مكان لما فيه مصلحة

[٦٨]) حكاية الحيوان عند أحمد شوقي (دراسة تاريخية وفنية)، على الشروش ومحمد العواودة، دورية كان التاريخية، العدد التاسع، سيتمبر ٢٠١٠م، ص ٢٧.

الناس ، وكذلك بعض الشخصيات في علم الدين كانت رامزة إلى نماذج ومعاني تصلح لكل زمان ؛ كشخصية الزوجة المطيعة الداعمة لزوجها ، الراضية بشظف الحياة ، الصابرة على ضيق ذات يده ، وشخصية الابن برهان الدين الذي حرص والده على اصطحابه معه في رحلته إلى باريس ، فعاش في كنف والده مطيعًا ، بارًا ، يرقبه في كل أحواله ليأخذ عنه علمه وخبراته ، فهذه الشخصيات ما زالت حية حتى الآن بأفكارها وصفاتها ، وجعل المؤلف كل شخصية تكشف حقيقتها وصفاتها – تدريجيًا– بأفعالها وحوارها وصورتها النامية المتطورة ، ليكتشف القارئ عنها شيئًا جديدًا مع كل مقامة يقرؤها ، فأحدث في نفس المتلقي تطلعًا إلى متابعة أحداث المقامة فأكسبها بذلك حيوية في التأثير ، وثراء في الدلالة .

وقد تعاقبت الحكايات الفرعية في المقامات على شكل سلسلة مترابطة، كما في حديث عيسى بن هشام، وعلم الدين، وليالي سطيح، كل حكاية تمثل حلقة منها في تعاقب مستمر حتى النهاية، **وهذا مما تخالف فيه المقامة المصرية في العصر الحديث المقامات القديمة التي تميزت بالقصر والتعاقب الحكائي المستقل؛ " لأن القصة ليست غاية فيها، بل واسطة لإظهار شخصية بطلها في مختلف أحواله، وقد تمر مقامات غثة باردة لا قيمة فيها للقصة البتة ".** (٦٩) ، وكانت الحبكة القصصية في الحديث ، والليالي ، وعلم الدين ، والمقامة الفكرية ، مركبة عرضت حكايات متعددة تداخلت واندمج بعضها في البعض الآخر حتى خرجت الحكاية مسبوكة سبكًا واحدًا ، بينما في مقامة (في الفرنسيس) كانت الحبكة بسيطة تقوم على سرد فكرة واحدة ومعالجتها ، وكان بالإمكان التفصيل في بعض المواضع لمزيد توضيح ؛ فمثلا لم يذكر الشيخ العطار أية أمثلة على القضايا أو الموضوعات التي ناقشها مع علماء الحملة ولو بهدف الإفادة ، ثم لم يقنع القارئ بأسباب تخليه عن الاستمرار في مصاحبتهم، ورفض حثهم له على ملازمتهم، وقد كان هو الناصح بالتعامل معهم والإفادة من علومهم ، فكان سير الأحداث في المقامة العطارية سريعًا، لا يتجاوز اليومين، كذلك الأمر في المقامة الفكرية ،كان سير الأحداث سريعا متتاليًا وكانت الحبكة متماسكة تماسكًا عضويا من بداية الرحلة حتى نهاينها، بينما سارت الأحداث بطيئة في المقامات الأخرى فامتدت شهوراً وأعواماً، ومع ذلك الامتداد لم تتفكك الحبكة القصصية فيها، بل انتظمت الحكايات الفرعية بوحدة العاطفة والشعور النفسي، ووحدة الفكرة الرئيسة.

أختم بنموذج من المسامرة الثالثة والثلاثين، من مقامات علم الدين – في سياق الحديث عن مدينة مرسيليا ومدينة الإسكندرية – تظهر فيه المقومات القصصية، والأسلوب المنمق الذي يميز فن المقامات:

---

٦٩) أدباء العرب في الأعصر العباسية (حياتهم، آثارهم، نقد آثارهم) ، بطرس البستاني، مؤسسة هنداوي، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٣٠٣.

" ومن ذلك هذه المدينة وأهلها فقد تقلب عليها كل من الأمرين ، وشربت من الكأسين ، واعتراها من الخير وضده ما اعترى غيرها كالاسكندرية وغيرها ، وملخص ما أعلمه من أمرها أنها قبل المسيح بستمائة سنة أي قبل تاريخ الهجرة النبوية بألف ومائتين وأربعين سنة تقريباً كانت لقوم يعرفون باسم ليجور وكان لهم جزء عظيم من خليج ليون وأغلب أرض خليج جينوا فهاجر إليها بعض سكان آسيا الصغرى أو الأناضول ... فاستوطنوها ، واستمروا بها ، وأخذوا في أسباب التقدم فاتسعت شهرتهم ، وعظمت ثروتهم ، ثم جاءهم بعد ستين سنة جمع عظيم من قبائلهم ، فاستقبلوهم وأسكنوهم معهم ، فزادت قوتهم ، وقويت شوكتهم ، وعمرت بلدتهم حتى فاقت على ما جاورها من البلاد ، وأحدثوا عدة من المدن والثغور ... ثم انفردت هذه المدينة بتجارة البحر واستقلت بها عند انحطاط مدينة صور وقرطاجنة، وبقي الأمر على ذلك إلى أن أسست القسطنطينية فأخذت منها شهرتها ، وتحولت التجارة إليها ... فقال الشيخ هكذا الدنيا لا تزال تنتقل فيها الأحوال ، ودوام الحال من المحال ، وقد قال تعالى وهو أصدق القائلين (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ، والبقاع كالناس تشقى وتسعد كما قال القائل:

أنى اطلعت على البقاع وجدتها *** تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وما ذكرته لي بالنسبة لمرسيليا قد حصل لغيرها من المدن والقرى فلا يكاد يسلم من ذلك التبدل بلد، كما أنه لا يخلو من التغير والتنقل أحد هي المقادير تجري في أعنتها *** فاصبر فليس لها صبر على حال

وقد ذكرت بما حكيت لي من تاريخ مارسيليا وتقلب حالها تاريخ الإسكندرية وتغيراتها، والشيء بالشيء يذكر فإن مدينة الإسكندرية أيضًا قد توالت عليها أحوال كثيرة، وتقلبات كبيرة، من سعد ونحس، ونعيم وبؤس، فقد جرعها الدهر كؤوس صابه وشهده، وأذاقها من حلوه ومره، وقلبها بين خصبه ومحله، فما من قرن مرّ عليها إلا وهي في حالة غير ما كانت عليه من قبله، فسبحان من له الدوام والبقاء، ولا يعتريه التغير والفناء". ([٧٠])

والحقيقة أن القالب الفني الذي جاءت عليه المقامة المصرية تضمّن كثيراً من المقومات القصصية التي جعلتها أقرب إلى الرواية ؛ إذ وظّف المقاميون بعض عناصر القصة بأسلوب سردي واضح معتمدين على الوصف ، والحوار بين الشخصيات ، وهذا أضفى على المقامة لمحة تشويقية وأكسبها عاملًا من عوامل الجذب واستدعاء الانتباه ، وألبسها ثوبًا فنيًا وعاطفيًا مكنها من التأثير في النفوس ، و " شجع كثيرا من الكتاب لكشف العيوب الاجتماعية والثورة عليها ذلك أن التعبير عن الأفكار الهامة والخطيرة من خلال الأحداث أو الشخصيات الفنية يكسبها

[٧٠]) علم الدين، ج٢ / ٤٦٨: ٤٧٣.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- إبريل ٢٠٢٤م

جمالًا أخاذًا يفوق ما يحققه الكاتب عن طريق الوعظ والإرشاد المباشر" (٧١)، بينما جاءت المقامات في عصرها الأول ؛ بعضها يميل إلى الأقصوصة ، وبعضها الآخر خالٍ من المقومات القصصية ، مع المحافظة على الأساليب المنمقة المزخرفة بأنواع البيان وألوان البديع .

الخاتمة

يعد فن المقامات من الفنون الأدبية النثرية الخصبة التي كانت مستودعا زاخراً بفرائد اللغة، ووقائع التاريخ، ودراسة قضايا المجتمع وطبائع الناس، واختص بسمات فنية تميز بنيته عن الفنون الأخرى؛ إذ توشح بالنسيج السردي، وحمل روح النقد، وزخر بأسلوب الصنعة اللفظية والبلاغية، وتأنق برداء البيان والبديع، وحمل على عاتقه هدفا ساميا للتعليم والتوجيه، والنصح والوعظ، وإصلاح المجتمع.

انصب اهتمام الدراسة على مقامة الشيخ حسن العطار (في الفرنسيس)، ومقامات علي باشا مبارك (علم الدين)، ومقامة عبد الله باشا فكري (المقامة الفكرية)، ومقامات المويلحي (حديث عيسى بن هشام)، ومقامات حافظ إبراهيم (ليالي سطيح)، بوصفها أشهر المقامات المصرية في العصر الحديث، التي كانت تنفيساً عن خواطر كاتبيها، ومشاعرهم، وأفكارهم، ثم توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، من أهمها:

- تعددت الأهداف والغايات التي قصد إليها المقاميون المصريون في العصر الحديث، وهي تتلخص فيما **يأتي:**

١- **الدعوة إلى التجديد والإصلاح، والنهوض بالوطن:** تجلت هذه الغاية في جميع المقامات المدروسة؛ فلم تخل مقامة من عاطفة الانتماء الوطني التي كانت سبباً وراء الدعوة إلى الإصلاح والنهوض والارتقاء.

٢- **النقد المجتمعي:** ظهر في جميع المقامات نقدٌ إيجابيٌ بنّاءٌ بأسلوبٍ رامزٍ، ينبه المثقفين بما يحمله من مناقشات، وانتقادات للقضايا المجتمعية.

٣- **التهذيب والتوجيه:** ارتبطت غاية التهذيب والتوجيه بالتعبير عن الخواطر النفسية، كما تجلى في (المقامة الفكرية)، ومقامة (في الفرنسيس)، ومقامات (علم الدين)؛ إذ قصد الشيخ العطار إلى توجيه تلاميذه نحو مبادئ المنهج الإصلاحي والفلسفة التنويرية، عندما تحاور مع علماء الحملة الفرنسية وناقشوا بعض المسائل اللغوية وكتب العلماء الأقدمين، كذلك قصد عبد الله فكري، وعلي مبارك، تهذيب النفس الإنسانية وإصلاح سلوكها بوصف قيمة الأخلاق الكريمة، وقوة الخير على الشر.

---

٧١) فن المقامات بين المشرق والمغرب، يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٧٩م، ص ١٤٦.

٤- **التعليم:** تجلت غاية التعليم في مقامات (علم الدين) و(حديث عيسى بن هشام)؛ إذ قصد كلاهما إلى تعليم الناشئة وبث المعارف والفنون النافعة فيهم، وإمدادهم بالمعلومات حول نظام الحكم الجديد في مصر، وإداراته، ومستجدات العصر.

٥- **الإمتاع الفني:** جاءت جميع المقامات المدروسة في أشكال فنية جاذبة بأسلوبها القصصي، وما تحويه من رموز وإشارات تجعل القارئ يتفاعل مع نصوصها، ويتأثر بها، ويعتبر بها ويصدقها، مقتنعًا بحقيقتها، ومتناسيا أنها من صنع الخيال.

- عالجت المقامة المصرية في العصر الحديث موضوعات مختلفة ، مثل نقد المجتمع ، والوصف ، والتوجيه والإرشاد ، والتأملات الفكرية ؛ فكان فن المقامة في ذلك العصر ناقدًا للمجتمع المصري ، مناقشًا قضاياه ، واصفًا أدواءه وخصاله القبيحة من الكذب ، والفوضى ، والفساد الإداري ، والنصب والاحتيال ، والانحلال الأخلاقي ، مؤرخًا لحقبة مهمة من تاريخ مصر السياسي ، والاجتماعي ، مؤديًا دورًا مهمًا في توجيه الناس نحو طلب العلم والالتزام ، والحفاظ على الهوية ، والتطوير والتغيير ، ومقاومة الظلم والاحتلال، ومحاربة الفساد المجتمعي ، فكانت المقامة المصرية تجربة رائقة تحمل روحًا إنسانية، وفكرة طريفة، تعلن رؤية كاتبها، وثقافته، وموقفه السياسي، وتدعو إلى إقامة دولة حقيقية يعمرها نور العلم، وفضائل الأخلاق، وقوة العدل، فاستطاعت أن تحمل بين جنباتها- انتقادات، وقضايا، وإشكالات- مما لا يستطيع البوح به فن آخر أو ينوء بحمله.
- اختلفت المقامة المصرية في العصر الحديث عن المقامة في العصر العباسي من حيث الأهداف، والموضوعات؛ إذ ابتعدت عن السخرية، والفكاهة، والكدية، والاحتيال، والمدح، والوصف، والتسلية، وإظهار البراعة في الكتابة والإنشاء، وإثبات التفوق في المسائل اللغوية، وكان المعنى هو الأساس الذي تعتمد عليه بنية المقامة المصرية، بخلاف المقامة في العصر العباسي التي كان اهتمامها الأول باللفظ والشكل الخارجي.
- اهتم المقاميون المصريون بعتبة العناوين الرئيسة ، والعناوين الداخلية ؛ فجاءت مرتبطة ارتباطًا قويًا ومباشرًا بالمضمون الفكري، والمتن السردي للمقامة، وشخصية البطل، أما عتبة الإهداء فكانت مفقودة في جميع المقامات باستثناء (حديث عيسى بن هشام) الذي اشتمل على إهداءٍ جمع بين العمومية والخصوصية، يشير إلى ما يتفرد به كتابه من أدب وعلم وحكمة وفصاحة وخيال؛ ليدفع جمهور القراء على اختلاف ثقافاتهم إلى الإقبال عليه، ويثبت تقديره واحترامه لأساتذته، كذلك جاء التقديم للمقامات عند المويلحي، وعلي مبارك فقط، وكان واصفًا لما اشتملت عليه، وشارحًا للأهداف التي من أجلها أنشئت. أما خواتيم المقامات فجاءت مباشرة تقريرية خالية من الطرافة، يركز

بعضها على تلخيص الهدف المنشود منها، وبعضها الآخر فقد الصلة بالفكرة الرئيسة للمقامة، وكان نهاية طبيعية لآخر حوار بين الراوي والبطل في موضوع قد يبدو بعيداً عن السياق العام للمقامة، وفي هذه السمة تختلف المقامة المصرية عن المقامات الأولى التي كانت تفاجئ القارئ بانجلاء الحيلة والخديعة وكشف الشخص المحتال

- لم يعارض المقاميون المصريون الهمذاني، أو الحريري، ولم يتقيدوا بالقوالب التي وضعاها؛ فلم نجد أثراً للكدية، أو التعقيد اللغوي، أو التكلف في الصنعة البديعية، ومع ذلك لا ننفي اهتداءهم بالمقامات الهمذانية والحريرية، ولذلك اتسمت المقامة المصرية– لغةً وأسلوباً– بخصائص فنية تناسب العصر والمجتمع، من أهمها:

٥- سهولة اللغة وعذوبتها، وبعدها عن الغرابة والتعقيد، والتزامها بقواعد النحو والصرف.

٦- استخدام المحسنات اللفظية عفو الخاطر دون تكلف، مما أضفى عليها ظلالا موسيقية عذبة.

٧- اللجوء إلى الإطناب في سرد الحكاية، وعرض تفصيلات الموضوع بإسهاب.

٨- الالتزام بأسلوب الحكي والسرد، والحوار بين الشخصيات

- تضمّن القالب الفني الذي جاءت عليه المقامة المصرية كثيراً من المقومات القصصية التي جعلتها أقرب إلى الرواية؛ إذ وظّف المقاميون بعض عناصر القصة بأسلوب سردي واضح معتمدين على الوصف، والحوار بين الشخصيات، وهذا أضفى على المقامة لمحة تشويقية وأكسبها عاملًا من عوامل الجذب واستدعاء الانتباه، وألبسها ثوباً فنياً وعاطفياً مكنها من التأثير في النفوس ، بينما جاءت المقامات في عصرها الأول؛ بعضها يميل إلى الأقصوصة ، وبعضها الآخر خالٍ من المقومات القصصية، مع المحافظة على الأساليب المنمقة المزخرفة بأنواع البيان وألوان البديع.

وبعد عرض النتائج التي سجلها البحث أشير إلى بعض التوصيات، من أهمها:

- دراسة المقامات المصرية الحديثة بمعالجات مختلفة، ومناهج متنوعة؛ للكشف عن معانيها الذهبية، ولغتها اللؤلؤية.
- دراسة التفاعل بين المقامة والأنواع الأدبية؛ للوقوف على تكوينها، ونسيجها اللغوي الذي يحتضن أنواعاً أدبية متنوعة كالشعر الغنائي، والفن القصصي، والحكمة.

وفي ختام هذا البحث أحمد الله أولًا وأخيراً على ما هدانا وأولانا.

المصادر والمراجع

المصادر:

- الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر ١٧٦٠ ــ ١٨٤٠، بيتر جران، ترجمة محروس سليمان، مراجعة د/ رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ملحق ١، ص٣٣١.
- حديث عيسى بن هشام، محمد المويلحي، ط ٧، دار المعارف.
- علم الدين، علي باشا مبارك، مطبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية، ١٨٨٢ م.
- ليالي سطيح، حافظ إبراهيم، مع دراسة تاريخية تحليلية للعصر والكاتب والكتاب لعبد الرحمن صدقي، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.
- المقامة الفكرية السنية في المملكة الباطنية، تعريب عبد الله فكري باشا، ط ١، مطبعة حسن علي المطبعجي، ١٨٩٨م.

المراجع:

- أدباء العرب في الأعصر العباسية (حياتهم، آثارهم، نقد آثارهم)، بطرس البستاني، مؤسسة هنداوي، ط ١، ٢٠١٤م
- أصول النقد الأدبي، طه أبو كريشة، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ١٩٩٦.
- الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
- أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور باشا، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٧م.
- انفتاح النص الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ٢٠٠١ م.
- تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حكاية الحيوان عند أحمد شوقي (دراسة تاريخية وفنية)، على الشروش ومحمد العواودة، دورية كان التاريخية، العدد التاسع، سيتمبر ٢٠١٠م.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.
- زاد المسير في علم التفسير، الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- شعرية الإهداء، جميل حمداوي، ط ١، ٢٠١٦ م.
- الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ترجمة: مبارك حنون، ومحمد الوالي، ومحمد أوراغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط ١, ١٩٩٦م.
- شعرية النص الموازي (عتبات النص الأدبي) جميل حمداوي، ط ٢، ٢٠١٩ م.

- عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، عبد الحق بلعابد، تقديم سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٨م.
- فن المقامات بين المشرق والمغرب، يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٧٩م، ص ١٤٦.
- في النص الأدبي ــ دراسة أسلوبية إحصائية، سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢ م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩٠ م، الجزء ٢.
- مدخل إلى عتبات النص ــ دراسة في مقدمات النقد العربي القديم ــ عبد الرازق بلال، تقديم إدريس نقوري، إفريقيا الشرق، بيروت، ٢٠٠٠م.
- المقامة، شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٣م.
- المقامة ودورها في الفكر العربي الحديث مع تحقيق لمقامة (في الفرنسيس) للشيخ حسن العطار، أ.د/ عصمت حسين سيد نصار و أ.م/ منال رفاعي محمد، مجلة الفكر المعاصر، الإصدار الثاني، عدد ٢٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٢٣م، ص ١٥١.
- من أعلام الفكر الإسلامي الحديث، أ.د/ محمود حمدي زقزوق، مطابع الأهرام بالقاهرة، ٢٠٠٨م.
- المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، خليل عودة، مجلة النجاح للأبحاث، مجلد ٢، عدد ٨، ١٩٩٤م.